حان القطاف

www.elromancia.com

مسرمورية

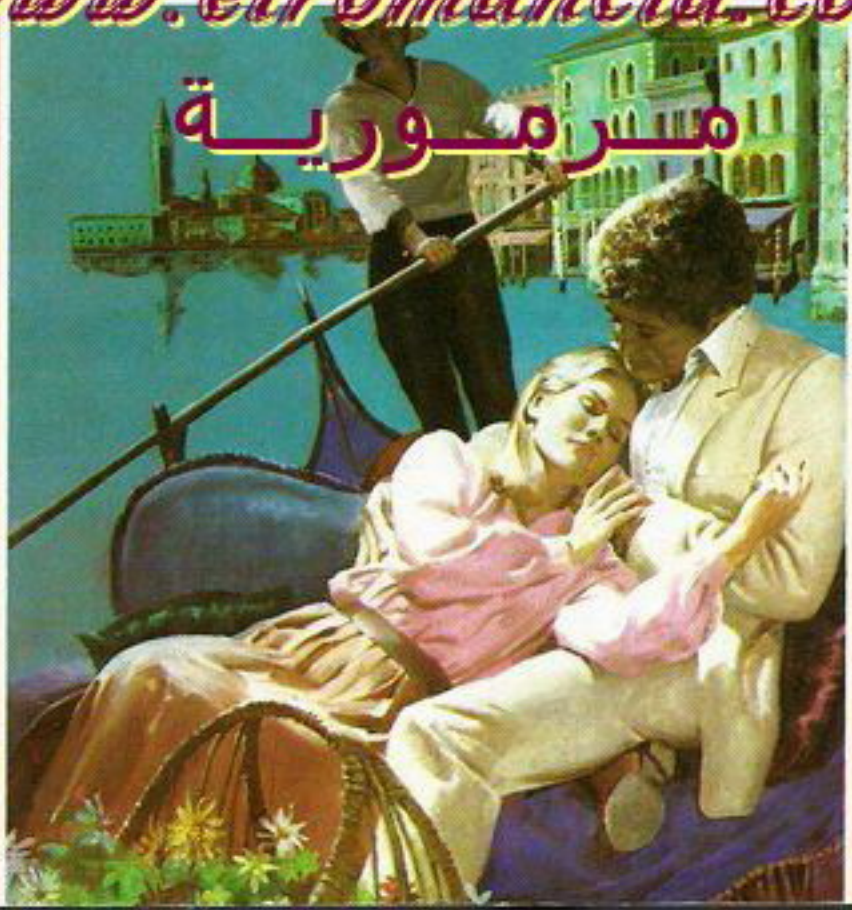

حان القطاف

مـات خطيب أدوينا ولم تذرف الدمـوع... فلم يبقِ غدره في قلبها إلا مرارة الغضب!! لكن يبدو أن أخاه يسير على نفس الطريق، فهو يريد الزواج بها بأية طريقة كانت، والهدف واحد: إنها بالنسبة له مجرد «كنز» يريد الاستيلاء عليه!

فـماذا تفعل أدوينا؟ هل تنسـحب هاربة من ساحة الصراع؟ أم تواجه كاليوس بنفس السلاح: تقبل الزواج به وفيما بعد... تنفذ انتقامها؟

www.elnadi.com

لبنان ٢٠٠٠ ل.ل.	الإمـارات.	مـصـر ٤ ج.	لـيـبـيـا
سوريا ٧٥ ل.س.	قـطـر ٦ ر.	المغـرب ١٥ د.	الـيـمـن
الأردن ١ د.	البحرين ٦٠٠ ف.	تـونـس ٢ د.	السـودان
الكويت ٥٠٠ ف.	السعـودية ١٠ ر.	عـمـان ٦٠٠ ب.	العـراق

١ ـ مذنبة رغماً عنها

دخلت أدوينا إلى غرفة المتاع الصغيرة الملحقة بغرفتها مخدرة الأطراف... كانت تتحرك كإنسان آلي، وأخرجت منها حقيبة كانت تحمل نصف متاعها على الأقل عندما جاءت من انكلترا إلى إيطاليا.

في الخزانة الملحقة بغرفة النوم، كان هناك حقائب أخرى من الجلد الفاخر اقتنتها منذ قدومها.. لكنها أغلقت الباب عليها فستكفيها الحقيبة المصنوعة من القماش وحقيبة الكتف لتوضيب ما ستأخذه معها حين تغادر «ڤيلا رانسيمو».. وهذا سيكون في وقت قريب.. سيراً على الأقدام.. ولن تعود..

حلَّ الظلام باكراً، وكان الرعد يزمجر من بعيد.. ولا يمكنها أن تأخذ بعين الاعتبار أن المطر بدأ ينهمر.. فهي بحاجة إلى الظلام للهروب.. لكن منذ ساعتين كانت الستائر في «صالون» الڤيلا مقفلة بوجه شمس العصر.. وكانت الغرفة الأنيقة مظلمة حين وقفت ببابها لتسمح لعينيها بالتعود على العتمة، قبل أن تدخلها.

ساعتئذ كانت في الطريق إلى الحديقة ولكنها توقفت قليلاً في الردهة واتصلت بمصفف شعرها في «ڤينيسيا» فوجدت أن الهاتف في غير محله.. كان عليها أن تتعقب الشريط إلى باب الصالون، وعندما استطاعت الرؤية بشكل واضح رأت أن سيسو مرتد ثياب التنس ولكنه

كان جالساً على مقعد مرتفع الظهر وكانت ساقاه متدليتين فوق المقعد، والهاتف مرتكزاً بين جذعه وفخذيه.

كان جامداً كثيراً بحيث ظنته نائماً.. لكن ما إن حاولت التقدم على رؤوس أصابعها لمفاجأته حتى لاحظت أنه يضع السماعة على إذنه وهو يصغي.

ارتدت تهمّ بالخروج ولكن قهقهاته العالية أوقفتها:

ـ ماذا تعني بقولك «ماذا عن روزينا، أما زلتما معاً؟» يا صديقي العزيز. أنا وروزينا بارنيار سنبقى على الدوام معاً.. ليس هناك مشكلة إلا غيرتها.. ويجب أن تعرف أنني لن أسمح لشيء تافه كالزواج من شابة عديمة القيمة أن يقف بيننا.. ومن الطبيعي ألا تعجب روزينا بهذا.. لكن هناك تلك البلدة في الميدلاند الإنكليزي، وتلك اليتيمة الواسعة العينين ذات الشعر التبني الجالسة فوق منجم الذهب.. حقاً رومانو إن هذا لمحزن! ولكن إذا كان عليّ إبقاء روزينا في المستوى الذي تتوقعه فعليّ التمسك بهذه الفرصة التي سنحت لي.. ما هذا؟

استمع مرة أخرى فانتظرت أدوينا مصدومة.

أضاف سيسو: أيمكن أن أسعى إلى منجم الذهب وأترك الفتاة؟ هذا أمر صعب كثيراً دون المال النقدي. وأنت تعرف كاليوس.. إنه لا يراهن بعشر ليرات على شيء لم يعاينه هو نفسه.. من هنا بدا لي أن من السهل الزواج بالمشرّدة في العائلة والحصول على «الخبطة» كلها مقابل لا شيء، مهما كانت قيمتها لنا.

صمت سيسو.. ثم قال ممازحاً:

ـ أتعرف.. اضطررت إلى إجبار نفسي.. أدوينا ليتل إنكليزية

من جهة الأم.. لكنها تتكلم الإيطالية كأي فرد منا. وأبواها متوفيان.. ولقد اتصلت بنا أولاً.. فأرسلني كاليوس إلى انكلترا لرؤيتها.. بعد هذا ذهبت مرتين. وأخيراً جلبتها معي.. ونحن مخطوبان.. في البداية كانت متصلبة.. ولكنها ذابت تحت تأثير سحري المعروف.. فرنسيسكا موافقة، وهي تظن أنني سأستقر.. أما كاليوس فلا أعرف رأيه.. لأنه لا يبوح برأيه إلا نادراً.. ولكننا سنتزوج في الأسبوع القادم. ولولا وجودك في الطرف الآخر من العالم لدعوتك إلى الحفلة، لكنك ستبقى هنا لفترة.. فهل سنلتقي؟

ساد صمت آخر.. ثم قال سيسو:

ـ لا.. ليس الليلة.. لديّ موعد مع روزينا.. في وقت آخر؟ سأكون على اتصال..

أعاد السماعة إلى مكانها، وخرجت أدوينا مسرعة لا تلوي على شيء.. وما إن وصلت إلى غرفتها حتى أقفلت الباب كأنما سيشكّل هذا حارساً ضد عالم أصبح عدوانياً بشكل قاسٍ.

لقد تلقت ترحيباً إلى هذا العالم وإلى القُبلا على يد زوجة والد سيسيليو الأرملة، السنيورا فرنسيسكا رانسيمو.. وحين وجدت نفسها وحيدة في غرفتها للمرة الأولى لامست أصابعها نقش حرف R المنقوش على الستائر والأغطية والمفارش والوسائد رمزاً لأسرة رانسيمو التي سرعان ما ستكون ملحقة باسمها، السنيورا «أدوينا رانسيمو» بدلاً من اسمها الذي ولدت به منذ واحد وعشرين سنة.

لكن الآن، وبعد هذا الاكتشاف القاسي الرهيب الذي سمعته من سيسو لم يعد هذا الاسم لها وما عادت تنتمي إليه.

ظلت لوقت طويل جالسة في المقعد إلى جانب النافذة تنظر إلى

الحديقة المنحدرة نحو النهر الذي يشق طريقه بين «بادوا» و «فينسيا» والذي تستضيف ضفتيه القصور الفخمة في كلتا المدينتين على مرّ العصور.. بعض الڤيلات اليوم مهجورة، وبعضها أصبح معارض للسواح، أما الأخرى فما زالت عصرية إذا ما قورنت بسواها.. وفيها مسابح خاصة وملاعب تنس ومرسى يخوت على النهر.

إحدى تلك الڤيلات هي ڤيلا رانسيمو.. لكن أدوينا لم تستطع النظر إلى مروجها وزهورها ونهرها، بسبب المطر المنهمر.. لم يكن نظرها ليرى.. بينما أفكارها تحاول إيجاد مكان لفهم ما جرى للتو.

شعر بلون التبن؟ أجل.. فاشقرار لون أمها الإنكليزية ورثته بلون شاحب يميل إلى الذهب. وليس بلون التبن الفاتح الرمادي بكل تأكيد.. طوله الناعم كان يلمع لمعاناً لا يمكن أن يلمعه التبن. واسعة العينين؟ أشعرها تقويم سيسو المرير لعينيها بالأسى.. نعم لا تنكر أن عينيها رماديتان شاحبتان، يحيط بهما إطار من ذهب على شكل رموش صفراء وأنهما كبيرتان بشكل يتناقض مع سائر قسمات وجهها، فأنفها صغير وشفتها العليا قصيرة وذقنها ضيق.. لكنهما ليستا عينين منتفختين كما سخر منهما سيسو.. لكن بما أنه لم ينظر إليها إلا على أنها كيس مال له، فهو على الأرجح لم يلحظ أن عينيها قد تسودان وتبرقان وتضحكان.. كما أنه لم يهتم أبداً، رغم براعته في التودد، أنها نحيلة وأنها امرأة كاملة.

أين بدأ كل هذا؟

لم تكن تعرف بوجوده حين قطعت وعداً لأبيها وهو يحتضر.. ثم كتبت رسالة لعائلة رانسيمو التي قال لها والدها إنها من أشهر العائلات في صناعة الكريستال.

كان الرد المطبوع على الآلة الكاتبة موقعاً بأسم «كاليوس رانسيمو» الذي شرح لها أنه الآن على رأس العائلة وأنه المسؤول حالياً عن المؤسسة التي عمادها صناعة الكريستال الفينيسي.. ثم أردف كاتباً أنه لم يكن يعلم أن لريكاردو ليتل ابنة وأن كل ما يعرفه أن والد ريكاردو كان موظفاً رفيع المقام عند جده حتى ترك العمل وسافر إلى إنكلترا إثر زواجه بامرأة إنكليزية ليؤسس مصنع كريستال خاصاً في انكلترا.. لكن بسبب رسالة أدوينا سيطلب من شقيقه سيسيليو الموجود في انكلترا بعمل لشركة «كرستوس» أن يزورها ليواسيها وليعزيها بوفاة أبيها.

اتصل بها سيسو صاحب الصوت الإيطالي الدافىء وكم كان دمث الأخلاق عبر الهاتف.... لكن أدوينا كانت خجلة من دلائل فشل أبيها التي اضطرت إلى إظهارها له.. المصنع المقفل خلف المنزل الذي تريد بيعه قبل أن تجد لنفسها عملاً.

كانت غرفة العرض ممتلئة بأغراض لم تجد لها مشترياً وما إن نظر سيسو إلى هذا كله حتى أبدى شفقته. وبسبب ولائها لأبيها سارعت تبرر سبب إفلاسه.

لم يكن الرجل الصغير قادراً على منافسة الصناعة الكبيرة ولم يكن يملك رأسمال لتطوير أفكاره ولم يهتم أحد بمساعدته.. ولأن هذا ما سمعته كثيراً من أبيها راحت تذكر ذلك أمام سيسو وكأنه درس حفظته عن ظهر قلب. بعد ذلك ساعدها في بيع منزلها وفي ترتيب أعمال ريكاردو.. ولكنها لا تفهم على الإطلاق معنى «منجم الذهب» الذي طلب منها الزواج من أجله، فهل كان لدى أبيها خطة للمستقبل رابحة؟ ولكنه لم يفضِ إليها بأي شيء.. أمن الممكن أن سيسو وجد

وهو يتعامل مع أوراق ريكاردو شيئاً مهماً حفظه لنفسه؟ بحسب تبجحه أمام صديقه وثقته الزائدة هي متأكدة من أنه وجد شيئاً.

بعد فترة ازدهرت مشاعرهما أو بالأحرى مشاعرها تجاهه.. فقد كان رجلاً لبقاً لم تلتق بمثله قط.. لقد أقنعها بإنفاق جزء من مال المنزل الذي باعته على الثياب وعلى مساحيق التجميل. وأحبط عزمها في البحث عن عمل.. في الزيارة الثالثة أخذها بين ذراعيه فشعرت بمشاعر جديدة وذابت مقاومتها لفكرة الزواج به بعد وقت قصير من التودد.

أما كاليوس رانسيمو فكان لغزاً أسود بالنسبة لها.. إنه رجل معتد بنفسه، لا يفصح عما يضمره أبداً.. بل يطالب ويأخذ بفظاظة وتسلط كل ما يريد وهو لا يتحمل الأغبياء، ولا يجد عذراً للضعفاء.. وإن ثار غضبه أصبح شخصاً ظالماً..

كانت عيناه سوداوين وجفناه ثقيلين وشعره أسود أملس.. أما أنفه فروماني متكبر، وبشرة وجهه السمراء النظيفة مشدودة على عظام وجنتيه وذقنه المربع الدال على العناد.. وهو إلى ذلك طويل كثيراً وهذا ما يضفي عليه هالة من التكبر والتعالي فهو بطوله هذا أشبه بعمود ضخم من الحيوية الناضجة. ولكن فمه المكتنز الشفتين هو وحده الذي يدل على دمه اللاتيني..

تصرّف مع أدوينا بتباعد وتحفظ حتى ظنت أنها لا تثير فضوله أبداً ولكنها ضبطته مرة وهو يتأملها وكأنما يريد بنظرته تلك تسجيل انطباع خاص عنها لا يريد لأحد أن يعرفه.. أحياناً كانت تربكها سيطرته الحديدية على نفسه، وتتساءل إن كان هناك ما يمكن إثارته إلى مستوى الهيام والشغف المشبوب.. إن كان هناك ما يمكن أن

يدفعه لفقد السيطرة على ذاته! ولكنها ارتجفت شفقة على المرأة التي ستتزوج سيطرته، وسيادته..

لقد أظلمت الدنيا وآن وقت رحيلها... ماريون رانسيمو في الخارج وكاليوس لا يأتي من مكتبه قبل موعد العشاء. وكانت تشعر بالراحة لأن سيسو لم يسع إليها قبل الخروج إلى موعده الغرامي مع عشيقته.. سمعته يدخل إلى غرفته ثم يغادرها في وقت سابق، فقررت أن تكتب له رسالة ستكون الملاحظة الوحيدة التي ستتركها قبل رحيلها.

حملت الرسالة إلى غرفته، ووضعتها في مكان مكشوف له فوق المكتب وعادت تكمل توضيب حقائبها الذي استغرقها وقتاً أطول مما توقعت.. وكانت قد مضت أكثر من نصف ساعة عندما رفعت قبعة معطفها الواقي من المطر فوق رأسها.

ما إن وصلت إلى رأس الدرج حتى تسمرت في مكانها بسبب سماعها صوت شخص بدأ يصعد الدرج.. من هو؟ إحدى الخادمات؟ لا.. إنهن يستخدمن الدرج الخلفي.. ماريون؟ كاسيوس؟ سيسو؟ آه.. لا! كانت إحدى يديها على السّياج والأخرى تمسك بالحقيبة. انتظرت أدوينا بينما كان كاليوس يصعد الدرج نحوها، ثم توقف وتفرس فيها وهو على الدرجة ما قبل الأخيرة.

بادلته النظر مخدرة الإحساس، وعرفت أنّه رأى حقيبتها ومعطفها الواقي من المطر.. صعد الدرجة الأخيرة ووقف قبالتها ونظر إلى الأسفل ثم قال بلطف لم يخدعها قطّ:

- أتريدين الخروج في مثل هذا الطقس الممطر؟ هل سيقلّك سيسو؟

هزت رأسها نفياً: «لا».

ـ لا؟

انقبضت حنجرتها، ورددت بصوت فظ:

ـ لا.. لن أخرج إلى أي مكان لأنني راحلة.

قال بلهجة جليدية:

ـ هكذا إذن.. أنا مضيفك.. وأنت خطيبة أخي ولقد رحبت بك زوجة أبينا كآبنة عتيدة لها.. ولكنك قررت فجأة الرحيل إلى مكان آخر.. فهل أكون متطفلاً إن سألتك عن المكان الذي تقصدين؟

ـ لا أقصد مكاناً محدّداً.. بل أريد فقط الابتعاد عن هنا.

خطت خطوة إلى الأمام، لكن يده التفت حول معصم يدها الحرة.. كانت حركة آسرة مع أن صوته بدا مهذباً وساخراً:

ـ إن لم تشائي ذكر المكان الذي تقصدين فعلى الأقل اذكري السبب؟

راوغت بالرد:

ـ وجدت أنني لا أحب سيسو بشكل كاف لأتزوجه.

ـ حقاً؟ قرار مفاجىء.. أليس كذلك؟ وهل أخبرته بهذا؟

ـ لا.. إنه في الخارج.. تركت له رسالة في غرفته.

برقت عيناه السوداوان:

ـ الرواية الكلاسيكية! وأنت تتصرفين كشخص جبان.. وكيف تقترحين أن تسافري؟

وكأنما يستطيع إيقافها!

ـ سأسير إلى الكاراج في «ماستر» ومن هناك سأستأجر سيارة أجرة.

ـ وإلى أين تريدين منه أن يقلّك؟

ضمت أدوينا شفتيها بقوة، وعرف أنها لا تنوي الرد. مد يده إلى الحقيبة فانتزعها بخشونة من يدها:

ـ ستعود هذه إلى غرفتك لأنك لست ذاهبة إلى أي مكان حتى تواجهي سيسو.

حمل الحقيبة إلى غرفتها.. ثم خرج منها وتوجّه إلى غرفة سيسو وبعد ذلك عاد إليها.

ـ أنت كاذبة مخادعة! لم تتركي رسالة لسيسو.

أجفلت أدوينا:

ـ بل تركت! على المكتب حيث لا يمكن ألا يراها.

ـ لم أجدها.. ابحثي بنفسك.

بحثت.. وكان على صواب، لقد اختفت رسالتها والتفسير الوحيد هو أن سيسو عاد بعد خروجه وأخذ الرسالة معه.. عندما عادت إلى كاليوس قالت له هذا فسخر منها:

ـ وجد وقرأ رسالة كهذه ولم يزعج نفسه بالاستفسار؟ أتظنين أنني قد أصدّق شيئاً كهذا؟

أغضبها شكه بها:

ـ ألا تصدق أنني كتبت له رسالة؟

ـ بصراحة.. لا.. ويجب ألا يدهشك هذا.. اسمعي! ستبقين هنا حتى يعود سيسو، فتكلمينه وجهاً لوجه.. تعالي.

ثم تقدمها نازلاً الدرج.

لحقت به إلى باب الصالون، وقالت بصوت مرتعش:

ـ لا تستطيع استبقائي رغماً عني!

www.elromancia.com

لكنها لم تشك في قدرته عندما دخل إلى الغرفة دون أن يرد، وأشار إلى مقعد وقال آمراً:

ـ اجلسي.

ظلت أدوينا واقفة حيث هي ويداها في جيبي معطفها، ثم راحت تقاومه حين حاول خلعه عنها.. فتخلى عن بذل الجهد وذهب ليجلس قائلاً:

ـ أعتقد أن فرانسيسكا في الخارج.. وإذا اضطررنا إلى انتظار سيسو طويلاً، فسنضطر إلى تناول العشاء بمفردنا.. فهل تمانعين؟

صرّت على أسنانها:

ـ لن أتناول الطعام معك، أرجوك لا تفكر في هذا!

ـ ولن تجلسي بصحبة الوصي عليك؟

ازداد كرهها له ولكنها تحركت إلى مقعد يبعد عنه كثيراً وجلست مهزومة، فرأت نفسها للمرة الأولى الجبانة التي وصفها.

إنه ليس شيئاً بالنسبة لها.. وسيكون أقل من هذا بعدما تغادر ڤيلا رانسيمو.. لكن إن واجهته بخيانة سيسو، فهل يلين قليلاً أو يفهم سبب ثورتها ويسامحها؟

قطع هذا الصمت المشحون رنين الهاتف.. ذهب كاليوس ليرد معتذراً. لكنه عاد بالهاتف إلى الداخل وهو يجرّ الشريط الموصل، وكأنه لا يثق بها أبداً ويخشى أن تهرب.

ـ نعم.. يتكلم.

ولم يقل شيئاً لدقائق.. ثم قال بحدة:

ـ متى حدث هذا؟ كم الحالة سيئة؟ أجل.. أجل.. أفهم.. أجل، سأكون هناك..

نظر إلى ساعته: بعد ربع ساعة.

وأعاد السماعة إلى مكانها ونظر إلى أدوينا:

ـ إنها الشرطة، لقد حصل لسيسو حادثة اصطدام بسيارته، كان مسرعاً في تقاطع «ميستر» واصطدم بقطار ميلانو ڤينيسيا.. وقد جرته القاطرة حتى استطاع القطار أن يتوقف.. واستلزم وقت كبير لانتزاع السيارة التي كانت كومة من معدن.. وكان سيسو فاقد الوعي حين انتشلوه ونقلوه إلى المستشفى.

ـ أوو.. أوه!

أوقفت أدوينا صيحة الصدمة الطويلة بوضع يدها على ثغرها.. كانت ترتجف كسفينة جانحة وعندما حاولت الوقوف مادت بها الغرفة فارتمت من جديد على مقعدها وتقدم كاليوس إليها:

ـ مهلك.

دفع رأسها إلى ما بين ركبتيها، وتركها هكذا حتى عاد الدم إلى رأسها ثم ذهب إلى المطبخ وسكب لها كوب عصير بارد، وعاد إليها ووضع يده على كتفها يأمرها بأن تشرب، فجلست وعيناها تدوران:

ـ لا.. لا أستطيع..

ـ اشربيه.

وضع الكوب على شفتيها، يرفعه لها حتى أفرغته.

ـ يجب أن أذهب.. الشرطة تريدني هناك، هل أستطيع تركك؟

أجفلت: أتعني هل تستطيع الثقة بي خشية أن أهرب؟

ـ إذا كان هذا تفسيرك لكلامي.

ـ بل أظن أن هذا ما عنيته.. لكن ألا يمكنني مرافقتك.. أرجوك؟

رد بنفاد صبر:

ـ إذا كنت ترين أن هذا من واجبك فلا بأس.. فليس لدي وقت لمجادلتك.. سأحضر السيارة. انتظريني أمام الباب.

كان المشهد عند تقاطع الطريق مع خط القطار الحديدي رهيباً.. وكانت جموع الناس والمصابيح الكاشفة والكاميرات تلمع بلون أبيض وركاب من القطار المتأخر عن مسيرته يسألون عن الباصات التي يمكن أن تقلّهم إلى محطة ڤينيسيا وكان جماعة من الشرطة مجتمعين حول حطام السيارة.. سأل الرجل الذي تقدم لفتح باب سيارة كاليوس وهو ينظر إلى أدوينا:

ـ من السنيورا؟

قال كاليوس باختصار:

ـ خطيبة السائق.. ستبقى هنا في السيارة.

راقبته أدوينا وهو ينضم إلى المجموعة، رأته يصغي ويسأل، ولكنها لم تكن تسمعه.. ثم مد يده إلى ما تبقى من مقعد السائق ليلتقط شيئاً عنه قبل العودة إلى سيارته. وأغلق الباب في وجه المراسلين المتسائلين، ولوّح لهم مودّعاً، وسرعان ما كان منطلقاً نحو ڤينيسيا.

سألت أدوينا: «إلى أين الآن؟»

ـ أنا سأذهب إلى المستشفى أما أنت فسأضعك في سيارة أجرة لتقلّك إلى الڤيلا حيث عليك انتظار فرانسيسكا حتى تعود.. وإن تأخرت بالعودة أخبريها أنت.

أطرقت أدوينا برأسها طاعة:

ـ سأخبرها كل ما أعرف.. لكن كيف وقع الحادث؟

ـ لدى الشرطة شهود يؤكدون أنه كان مسرعاً بطريقة جنونية وأنه اندفع من تحت الحاجز وهو يُقفل، وأن الحاجز الثاني أقفل قبل وصوله إليه، فصدم القطار السيارة في سرعة مئة وعشرين كيلو متراً في الساعة.

لا بد أنه كان مسرعاً للمحافظة على موعده بعد عودته إلى المنزل لسبب ما، ووجد رسالتها.. وتابع كاليوس:

ـ أحد الرجال الذين سيشهدون في التحقيق سيقسم أن سائق السيارة، من وجهة نظره، كان ينوي الانتحار.. فهل يوحي لك هذا بشيء؟

سحبت أدوينا أنفاساً طويلة مرتجفة:

ـ انتحار؟ لا! لماذا يوحي لي هذا بشيء؟

وصلا إلى الشارع العريض الذي يفضي إلى پيزال روما وأدخل السيارة إلى موقف قبل أن يرد:

ـ إذن ربما هذه تخبرك شيئاً.

حدقت إلى الورقة المكورة التي وضعها في يدها. كانت نصف مغلف محترق يحتوي على رسالتها وعليه أحرف «سيسـ..» بخط يدها، فتحت نصف المغلف ولم تجد شيئاً.. لكن الدليل كان موجوداً بالنسبة إلى المرتاب الذي إلى جانبها.

قالت: «إنها رسالتي إلى سيسو التي لم تصدق أنني كتبتها له»

ـ لا.. رجاءً لا تبحثي عن أعذار.

ـ أنا لا..

ـ هذا أفضل.. لأن إيجادي لها بدينك أكثر..

قاطعته: «بدينني؟»

- أجل.. وهل تريدين كلمات أقوى من هذه؟ لقد كتبت الرسالة تفسخين خطوبتك له دون سماع أقواله.. لقد قرأ الرسالة.. وها هي النتيجة! لو واجهته لما قاد سيارته في ثورة غضب للابتعاد قدر المستطاع عنك، حتى يستوعب عقله واقع نبذك إياه دون سبب عشية زواجكما.. قاد كالمجنون، كالأبله، وكأنه يريد الانتحار.. فهل فهمت الآن معنى كلمة الإدانة؟

انكمشت أدوينا في مقعدها.. طالما تساءلت كيف يكون هذا الرجل وهو غاضب.. والآن عرفت.. من خلال أنوار السيارات المتقاطعة الداخلة لتقف حولهما، بدت عيناه السوداوان مشتعلتين بنار حمراء تتطايران شرراً وتخمدان بالتعاقب، كانت قسوته الحادة كلها موجهة إليها..

قالت بصوت ضعيف: «كنت معذورة.. أنا لم أحبه».

- لقد خدعتني.. ويبدو أنك على مدى ثلاثة أشهر من الخطوبة الملتهبة خدعت سيسو حتى عجز عن تصديق ما رميته به الليلة.. أتمنى أن يدوم خجلك من هذا.. أما الشعور بالذنب فهو أمر غير متوقع من منتهزة للفرص مثلك؟

هذه قسوة كبيرة.. يجب أن تدافع عن نفسها:

- لست مذنبة فيما حدث لسيسو هذه الليلة.. فلم يكن مسرعاً بسببي.. بل لأ..

لكن الكلمات التي كانت تهمّ بقولها جمدت على شفتيها، لقد كان متأخراً.. كان ذاهباً لمقابلة عشيقته.. ولقد خدعني بهذه الخطوبة بسبب جشع مجهول السبب منه. ولكن عليها ألا تقول هذا إلى أن يصبح سيسو في وضع صحي يسمح له بالاعتراف بالحقيقة.

أضافت: «لا بد أنه كان متأخراً على موعد ما.. وتعرف كم يقود بسرعة، حتى في الأحوال العادية».

- بسرعة نعم، ولكن ليس بتهور.. لا.. لا بد من وجود سبب.. وبسبب الدليل الذي وجدناه، أقول إننا نعرفه.. لازمي مكانك إلى أن أستأجر لك سيارة أجرة وتذكرة.. أما بشأن فرانسيسكا فلا تخبريها شيئاً بأمر رحيلك أو بأمر ضبطي إياك وأنت على وشك الهرب.. كنا معاً في الصالون عندما اتصلت الشرطة.. ومن الطبيعي لخطيبة سيسو أن ترغب في الذهاب معي هل فهمت؟

- أجل.. لكن..

- لكن ماذا؟

- أنت تطلب مني أن أكذب.

- أجل، لأن فرانسيسكا عرضة لصدمة كافية.. على أي حال تظاهرت لثلاثة أشهر بأنك سعيدة مع سيسو. أما كنت تكذبين علينا؟

صفق باب السيارة بقوة وابتعد.

كان كاليوس، وقبل مغادرة القيلا، قد أخبر ماريون مدبرة المنزل الخبر الفاجعة.. وعندما وصلت أدوينا، أخبرت المرأة القليل المتبقي مما تعرفه.. ثم ذهبت مباشرة إلى غرفتها وأخرجت الثياب من الحقيبة التي لن تأخذها معها الليلة على أي حال.. أو في أية ليلة بالطريقة المختلسة التي خططت لها.. سخرية كاليوس بها، أكدت هذا.. لأنها لن تغادر القيلا إلا بعد مواجهة صريحة مع سيسو.. وستخرج بكل احترام ووقار، وعندما يحصل هذا لن تهتم إن أدرك كاليوس مدى الخطأ الذي ارتكبه بحقها.

نزلت أدوينا إلى الصالون تنتظر عودة فرانسيسكا وتدعو الله أن

يعود كاليوس قبل وصول زوجة أبيه.. أخذت ترتجف عندما سمعت سيارة فرانسيسكا لكنها أجبرت نفسها على إخبار المرأة بالحادث.

أبيضّ وجه فرانسيسكا الوسيم للخبر. لكن التحفظ الأرستقراطي ساعدها في السيطرة على نفسها..

قالت: «لا.. لقد تناولت عشاء جيداً.. لكن أدوينا لم تأكل.. بالتأكيد.. أليس كذلك؟ إذن يجب أن تأكل شيئاً».

عندما أعلنت أدوينا مرتجفة أنها لن تستطيع، لم تضغط فرانسيسكا عليها.

ـ ستأكلين بعدما يحمل إلينا كاليوس أخباراً جيدة عن سيسو.. أو قد يجلبه معه إلى المنزل.

بعد هذا، جلستا معاً تتحدثان بأمور متفرقة كان يقطعها فترات من الصمت.

قالت فرانسيسكا بحدة:

ـ ألوم سيسو لأنه يخرج بدونك ميلاً.

ثم: أرجو ألا يعني هذا تأخير زواجكما.

وهذا ما أثار ضمير أدوينا بحدة.

ثم وصل كاليوس.. دخل إلى الغرفة نحو فرانسيسكا التي هرعت إليه قائلة:

ـ كاليوس.. ماذا؟

وضع ذراعه حول كتفيها، وشدها إليه.. لكنه تكلم مع أدوينا التي لم تتحرك:

ـ مات سيسو!

* * *

٢ ـ يريد سجنها

في الأيام التالية شهدت أدوينا بأم عينها الحزن الذي يسيطر على العائلات الإيطالية حين وفاة عزيز ما. اتشحت فرانسيسكا بالسواد وأرسلت في طلب خياطتها لتفصل لها ثوب الحداد الذي يجب أن ترتديه وقت الجنازة لأنها كانت عروس سيسو العتيدة. ثم سارعوا لإخبار فروع عائلة رانسيمو الممتدة إلى فرنسا وسويسرا وسردينيا، ليستطيعوا إرسال من يمثلهم، وكان هناك سيل من الزوار المحليين الذين تركوا بطاقات العزاء والزهور في القيلا.

ولكن أدوينا لم تطق الزيف الذي أجبرها كاليوس على إظهاره والعيش فيه. فبعد تلك الأمسية المربكة، لم تتوقع منه أن يطالبها بالاستمرار في المسرحية التي فرضها عليها لإنقاذ فرانسيسكا من صدمة مزدوجة، حادثة سيسو وقرارها الانفصال عنه.. ظنت أنه سيخبرها الحقيقة بعد بضع ساعات، أو في اليوم التالي على الأقل وأنه سيسمح لها بالابتعاد بهدوء قبل أن يحتشد الأقارب.

لكن ظهر من تصرفات فرانسيسكا التي لم تتغير مع أدوينا أن كاليوس لم يقل لها شيئاً.. وعندما واجهته أدوينا، وطالبته بالسماح لها بمغادرة المكان قبل الجنازة رفض رفضاً عنيفاً..

ـ سيعرف الجميع فقط أن سيسو كان رجلاً سعيداً في خطوبته

www.elromancia.com

حين مات.. فلا أريد أي قال أو قيل..

- لكن عندما أذهب فستضطر لقول الحقيقة إلى زوجة أبيك أوتسمح لي أنا بإخبارها.. بعد ذهابي لا يهم ما يتناقله الناس عني.

ضحك ضحكة قصيرة كريهة.. ثم أجاب:

- يا فتاتي العزيزة.. لا تظني أبداً أنني مهتم بأي حرج قد يصيبك.. أنت! لأنني لا أهتم إلا بشرف سيسالينو.. فأنا أعرف أن اللوم في ظروف موته يقع عليك، لكن من الصعب الاعتراف بهذا والسماح للشائعات بالانتشار.. سنجد الألسن تقول: «لا دخان من دون نار» وأن الغلطة كانت غلطة سيسو.. وهذا ما لن أسمح به.

قالت أدوينا ساخرة:

- وأعتقد أنك ستقرّ بذنبي وتتهمني.. لكن، فلنفترض أنني قلت لك إن سيسو حنث بوعده معي قبل أن أقرر الانفصال عنه.. فماذا ستفعل؟

- أتدعين أنك قادرة على إثبات هذا؟

تعرف أنها قادرة.. لكنها في الساعات الأولى من موته لم تستطع إجبار نفسها على كشف حقيقته أمام أخيه.. التقاليد القديمة قدم الزمان والقائلة بوجوب نسيان شرور الموتى، يجب أن تبقيها ساكتة.. ومع أنها بكلمة واحدة، تستطيع أن تجرّح بذكريات كاليوس وفرانسيسكا عن سيسكو، إلا أنها يجب ألا تتكلم.

قالت لكاليوس: «لو استطعت.. فهل تصدقني؟»

- بكل تأكيد.. لا.. وإلا لتكلمت عن مظلوميتك الحقيقية أو الخيالية قبل الآن.. ولمنحت سيسو الفرصة للدفاع عن نفسه، بدل رفضه بتلك الطريقة والقول له: «آسفة لم أحبك.. وآسفة للإزعاج».

حتى ولو نجا خطابك له من الحادثة، أيمكن أن تدعي أنه كان أقل قسوة من هذا؟

قالت بهدوء:

- آمل أنه لم يكن على هذه الدرجة من القسوة.. لقد قلت له إنني وجدت نفسي غير قادرة على أن أحبه.. وذكرت له الأسباب، وذكرت له أنني ذاهبة دون أن أراه لأنه أمثل حل.

سخر منها كاليوس:

- ظننت أن هذا هو «الأفضل»! وعلى ضوء ما حدث أما زلت مؤمنة أنه كان أمثل حل؟

- لم أكن أعرف أنه سيُقتل!

- تصحيح.. لم تعرفي أنه سينتحر بسبب شعوره باليأس.. أليس هذا ما تقصدينه؟

- إنه لم...!

- لم يكن يحبك إلى درجة الإقدام على الانتحار؟

- لم يقصد أن يقتل نفسه.. ولن تجرؤ على الاقتراح بأنه فعل هذا!

- ربما.. فالمرء لا يستطيع أن يعرف.. مع ذلك ما زلت أعتبرك المسؤولة الأولى عن مزاجه المتهور.

تفرس كاليوس فيها فيما دموع الرعب تندفع من عينيها، وتتدحرج إلى وجنتيها.. ثم قال:

- تستطيعين البكاء إذن؟ عجباً! أخشى أن تجدي الدموع مطلوبة منك غداً وقت الجنازة.

عجّ المنزل بالناس يوم الجنازة، ولم يغادر آخر أفراد الأسرة إلا

www.elromancia.com

بعد ثلاثة أيام.. خلال الجنازة انشغلت فرانسيسكا بهم، وأظهرت صبراً واضحاً ولكن ما إن فرغت القيلا حتى طلبت الدعم من أدوينا بطريقة أثرت في ضمير الفتاة.

أفضت لها بحزنها:

- أنا امرأة وحيدة.. كاليوس له قلب من كريستال، وهذا كل شيء. إنه رجل.. أجل.. ولكنه لم يسمح يوماً لعلاقة ما بالسيطرة عليه أو بالتدخل بحياته.. ولا يتوقع مني أبداً استقبال امرأة لا ينوي الزواج بها.. بالنسبة لسيسو، كانت شركة كريستوس بنظره هي منبع المال الذي لم يحصل على كفاية منه أبداً. يا للفتى المسكين! كان برّياً دائماً، دائماً في الخارج وفي الحفلات مع أصدقائه الشبان أو الشابات.. ثم التقى بك كارا.. وافتتن بك، لكن ماذا عنك؟ لقد كان شاباً صغيراً، وهذا ما لم يكنه كاليوس يوماً.. كنت كبيرة في السن عندما تزوجت والدهما ولم يكن بإمكاني الإنجاب.. هكذا حين جاء بك سيسو إلينا وهو غارق في حبك، تمكنت من الاعتماد على صحبتك وعلى الأولاد الذين ستنجبينهم.. لكن الآن انتهى كل شيء.. ولا شك أنك ستتزوجين يوماً وهذا يعني أنني سأبقى وحيدة.

انهمرت دموعها كالشلال، فقامت أدوينا بجهدها لتواسيها:

- سيتزوج كاليوس، وعما قريب يأتي أولاده الذين ستحبينهم كثيراً.

- لكن هذا لن يحصل حتى يفكر أن من واجبه إنجاب وريث يأخذ عنه مهامه في كريستوس، وقد لا تعجبني المرأة التي سيختارها. ولكنك ستبقين معنا قليلاً.. أليس كذلك؟ يعتقد كاليوس

أنك باقية.

هو يعتقد هذا للأسباب التي أجبرها من أجلها على تمثيل الدور المزيف في جنازة سيسو.. ففضيحة نبذها لسيسو ومحاولتها الهرب يجب ألا تطل برأسها البشع أبداً.

سألتها فرانسيسكا:

- لماذا لا تستمرين بوضع خاتم سيسو.. فكاليوس يرى أن عليك وضعه.

كاليوس يعتقد هذا.. وهو يعرف جيداً أنها فسخت الخطوبة حتى قبل موت سيسو! كيف يجرؤ على هذا؟ لكن الشفقة منعتها من قول الحقيقة لفرانسيسكا.

قالت: «ولماذا هذا ما دمت لم أعد مخطوبة.. اعتقدت أنك قد ترغبين في استعادته».

هزت فرانسيسكا رأسها نفياً:

- لا.. لا.. فعليك حتى ولو شعرت أنك غير قادرة على تحمل وضعه في يدك أن تحتفظي به كذكرى من سيسو. ولكنني أعتقد أن وضعه في إصبعك سيبهج كاليوس.

من هو رومانو الذي تكلّم معه سيسو عن دوافعه للتودد إليها؟ هل تعرفه فرانسيسكا أو كاليوس على أنه صديق سيسو؟ وروزينا بارنيار.. هل يعرفانها؟ هل حضر رومانو أو روزينا جنازة سيسو؟ كلاهما غريب عنها، لكن كليهما يعرف ما علاقتها بسيسو.. وهما يعرفان ما صنعاه بها، هل تجرأ أحدهم على السخرية منها أو أبدى الشفقة عليها؟

ثم هناك ادعاء سيسو بأنه ما تودد إليها إلا من أجل أن يكسب

شيئاً معيناً هي لا تعرف ماهيته.. لقد تكلم بكل ثقة.. فهل كان مخطئاً في هذا؟ صحيح أنها رغبت بإرادتها أن يراجع أوراق والدها، ويصفّي شؤونه.. ولكن لا يمكن أن يجد شيئاً يثير مثل هذه الآمال في ذلك المشروع الفاشل.. لم يكن في أوراق والدها إلا رسومات مشوشة لمشاريع نصف كاملة، وأفكار هجرها ريكاردو ليتل.. وتعرفها أدوينا.. مجرد أوراق لا قيمة لها، طلبت من سيسو أن يوضبها لها وأن يجلبها معهما عندما حضرا إلى إيطاليا معاً. لقد تولى أمرها وهذا يعني أنها ما تزال بين أغراضه لذا ستطلب من كاليوس استعادتها.

ذات صباح قامت بشراء بعض المشتريات من أجل فرانسيسكا ثم عادت إلى «پيزال روما» حيث ينتظرها دينو، سائق الأسرة.. طلبت القهوة في مقهى ساحة سان ماركو وأخذت تراقب منظر المارة والبائعين المتجولين والأولاد والعشاق الصغار المتعانقين، والشبان الذين يتمشون ببطء شديد لأسباب أخرى كتجربة حظهم للفت انتباه فتاة جميلة، ثم أدركت أنها أصبحت هدفاً لبعض النظرات بسبب جلوسها بمفردها إلى الطاولة.. لكنها لم تكن مستعدة للنظرة الطويلة الصريحة التي كان يلقيها عليها شاب أشقر اللحية يجلس إلى طاولة مجاورة.

أشاحت بوجهها، ثم نظرت مجدداً.. فإذا هو لا يزال ينظر إليها. التقطت حقيبتها وأكياس مشترياتها منزعجة لأنها مضطرة إلى الرحيل قبل الأوان.. لكنه ترك طاولته واقترب منها.

أجاب بالإيطالية عن السؤال الصامت الذي أبدته برفع حاجبيها:

ـ عذراً سنيوريتا.. لكن ألم أرك في جنازة صديقي سيسالينو

رانسيمو؟

ثم قال ببطء وإنّما بالإنكليزية هذه المرة:

ـ أنت تفهمينني.. وإن كنت لا تفهمين الإيطالية فلا بأس لأنني أجيد الإنكليزية قليلاً. هل لي أن أقدم نفسي.. أنا رومانو كالينو.. هل لي أن أنضم إليك لبضع دقائق؟

رومانو؟ بين يديها؟

قالت: «يبدو أنك تعرف من أنا.. وما جنسيتي.. لكنني أتكلم الإيطالية وأفهمها جيداً.. سنيور».

ـ إذن هلاّ سمحت لي بالتحدث إليك بالإيطالية؟

ردت بدون تشجيع: «لك ملء الحرية».

جلس وأشار إلى فنجان القهوة:

ـ آه.. هل لي أن أطلب لك فنجان كاباتشينو آخر؟

ـ لا.. شكراً لك. كنت أهم بالرحيل.

ـ إنما عليك البقاء حتى أفسر ما أريد قوله! أترين.. أعرف أنك إنكليزية لأن أحدهم أشار إليك في الجنازة على أنك خطيبته.. وكنت أعرف اسمك.. أدوينا ليتل.. فتاة نصف إنكليزية ذات اسم إيطالي، هذا ما قاله لي سيسو. كان والدك إيطالياً.. لكنه وأمك متوفيان.

وهذا صحيح.. فأنت تعرفني على أنني اليتيمة ذات الشعر التبني اللون.. التافهة التي أراد الزواج بها من أجل ثروة خرافية.

قالت بصوت مرتفع:

ـ أنا في إيطاليا منذ ثلاثة أشهر، فما دمت صديقاً لسيسو، فلماذا لم ألتق بك..

ـ لأنني كنت مسافراً منذ سنة تقريباً.. كنت أمثل مؤسستي في أميركا الشمالية.. فمؤسستي كمؤسسة رانسيمو تتاجر بالزجاج، أما اسم مؤسستي فبرونو ماليستي.. والتقيت بسيسو في كلية التجارة.

ـ ومن دلك إليّ في الجنازة؟

ـ شخص ما.. أنا..

ـ أنت تعرف هوية الشخص بلا شك.

ـ أجل.. امرأة.. صديقة لسيسو، روزينا بارنيار.

ـ وهل هي متزوجة؟

ـ إنها منفصلة عن زوجها.

ـ لا أذكر أنني التقيتها هي الأخرى.

ـ لا.. فهي لا تعرف من العائلة غير سيسو.. لكنها رأتك معه عن مسافة كما أعتقد.

ـ هكذا إذن.. وماذا كان يدور في خلدك حين تعرّفت إليّ وقررت التحدث إليّ سنيور؟ ماذا تريد مني؟

نظر إليها بعينين صريحتين بارقتين، وقال:

ـ لا أريد شيئاً منك سنيوريتا.. وجلّ ما أريده هو تقديم العزاء لك والتعرّف إليك أفضل بقليل.

ـ أفضل من ماذا؟

ابتسم ابتسامة اعتذار:

ـ عليك أن تسألي هذا بالتأكيد! ولقد عنيت أفضل مما أعرفك من خلال ما كلمني عنك سيسو الذي لم يكن بارعاً البتة بالوصف وأخشى ألا يكون قد أنصفك فيما قاله عنك. فأنا أجدك.. جميلة.. أمر مؤسف لسيسو، لكنك جميلة فعلاً. هل أسيء إليك بكلامي هذا

يا سنيوريتا؟

ـ ولماذا أعتبرها إساءة؟ ولكنني أتساءل عن السبب الذي جعلك تقول هذا..

أشعرها امتقاع لونه بشيء من الدفء تجاهه..

أضافت: «ولكن شكراً لك على أي حال.. أنا مسرورة لأنك تحدثت معي».

وكانت مسرورة فعلاً.. على الأقل لأنه ليس من أسرة رانسيمو التي يجب أن تعيش معها كذبة. وهو يعرف سيسو الغشاش على حقيقته.. وإلى ذلك هي معجبة به بسبب شخصيته.. ولا تريد أن تصدق الصورة التي رسمتها عنه كرفيق سيسو في المباهج والمتعة.. لقد أعجبت به.

لامست حقيبتها مرة أخرى، فوقف يمسك لها كرسيها متسائلاً:

ـ أيجب أن تذهبي؟

ـ يجب أن ألتقي «القابوراتو» قرب دانيللي.. ولقد حان الوقت.

ـ هل لي أن أسير معك إلى هناك؟

سارا معاً في الساحة ومنها إلى الرصيف أمام الفندق الشهير «دانيللي أوتيل» حيث لم يكن الباص المائي قد وصل بعد.. قالت له:

ـ لن يتأخر أكثر من هذا.. لكن أرجوك لا تنتظر.

تردد مرافقها وعض على شفته:

ـ أرجوك اسمحي لي.. إن كنت باقية في ڤينيا رانسيمو.. فهل يمكنني رؤيتك مجدداً؟

ـ لا أدري.. هل تأتي إلى هناك عادة؟

ـ كنت أقصدهم قبل سفري إلى الخارج لأرى سيسو.. لكنني حقاً أرغب في رؤيتك لأدعوك إلى غداء أو عشاء.

كان الرد على هذا أمراً صعباً. وهي لا تريد أن ترد عليه بتكبر.. ولكنها لا تعرف كيف ستكون ردة فعل كاليوس أو فرانسيسكا لقبولها الدعوة:

ـ ما زلنا في حداد على سيسو.. ولا أظن..

ـ أنا آسف ولكن يمكنني الاتصال بك بعد فترة لأدعوك.

لكنها لم تكن تستمع إليه.. بل كانت نظرتها قد تجاوزته إلى ما وراءه لترى كاليوس الذي افترق عن رجلين على باب دانيللي. الواضح أنه شاهدها، لأنه قطع الرصيف بخطوات سريعة وانضم إليها ناظراً بتساؤل إلى رومانو الذي سارع يقول:

ـ سنيور رانسيمو؟ أنا والسنيوريتا ليتل التقينا في بيازا سانت ماركو.. وهي تنتظر «القابوراتو» الذي تأخر.

هز كاليوس رأسه له ببرود:

ـ أجل.. كالينو.. رومانو.. اسمك كالينو أليس كذلك؟ من «برونو ماليستي»؟ لم أرك منذ وقت طويل.

ـ كنت مسافراً.. وكنت أعرف سيسو جيداً.. وأنا.. آسف سنيور.

ـ آه.. شكراً لك.

ارتدّ كاليوس إلى أدوينا:

ـ لا حاجة بك لانتظار القابوراتو فلدي «اللانش» هنا. أنت في طريقك إلى المنزل على ما أعتقد؟

ثم أمسك مرفقها بدون أن يضيّف كلمة أخرى لرومانو، واقتادها

إلى اللانش المنتظر.. نظرت إلى الوراء وهزّت كتفيها معتذرة لرومانو الذي همس لها:

ـ سأتصل بك يوماً.

أمسك كاليوس مقود لانشه الخاص وراح يقوده ببراعة مجتازاً المراكب المزدحمة في القنال.. عندما أصبحا في منتصف الطريق، قالت:

ـ لقد تصرفت بفظاظة.. أليس كذلك؟ أنت تعرفه وهو يعرفني.. ولم يلتقطني من الشارع.

ـ وكيف يعرفك؟ هل عرّفك إليه سيسو؟

ـ لا.. كان في الجنازة.. ودلّوه علي.

ـ وفي البيازا؟

ـ كنت أتناول القهوة، وجاء ليكلمني.

ـ عمّ؟

ـ أراد تقديم نفسه ليقدم تعازيه ولأنه صديق.

ـ كان عليه أن يقدّم لك العزاء في الڤيلا ويترك بطاقته كسائر الأصدقاء.. بدل أن يتقدم إليك بطريقة تثير التساؤل.

نظرت أدوينا طويلاً إلى الوجه الغرانيتي المستدير عنها.

ـ بطريقة تثير التساؤل؟ جاء ليكلمني بحق الله!

ـ ظلّ معك ليتباحث الحديث ثم رافقك إلى الرصيف ولا ريب أنه أطلق بضع دعوات لهذا أو ذاك؟

ـ سألني أن أتناول العشاء معه ذات مرة.. هذا صحيح.

ـ وماذا قلت؟

ـ أننا ما زلنا في حداد على سيسو، لأنني لا أعرف إذا كنت أنت

www.elromancia.com

أو زوجة أبيك تهتمان أن أقبل.

أوقف كاليوس اللانش، وساعدها على الخروج ثم ربط اللانش إلى المرسى، قبل أن يرد عليها.

ـ كنت على حق عندما افترضت أننا لا نريد هذا. كما أن عليك عدم القبول بذلك من تلقاء نفسك.. أعرف أن حزنك عليه غير عميق أو صادق ولكن إن رغبت في تشجيع الشاب في المستقبل فإياك أن تفعلي هذا أمام أصدقائنا.

تقدم أمامها إلى حيث قالت إن دينو سيكون بالانتظار مع السيارة، وساعدها لتدخلها، وتركهما ليأخذ سيارته.

كانت أدوينا طوال طريق العودة إلى الڤيلا ترغي وتزبد غضباً.. حتى ولو كان كاليوس ما زال يعتبرها مسؤولة عن موت سيسو، فبأي حق يملي عليها تصرفاتها هكذا؟ تصرفه عدائي. وهو يؤكد كل ما سمعته عن أن شرف العائلة ومركزها هو كل شيء بالنسبة للإيطاليين.. وعليها عدم تلطيخه بالظهور مع رجل آخر بعد وقت قصير من موت سيسو.. وهذه كانت أوامر كاليوس لها مع أنها أبعد ما تكون عن زوجة لأخيه! حسناً.. إنها تريد وتحتاج إلى رؤية رومانو كالينو مرة أخرى، ولو لتعرف ما إذا كان اهتمامه بها مجرد فضول للتعرّف إلى الفتاة التي استغفلها سيسو.. أضف إلى هذا أنه يعرف روزينا وهي ستسعد كثيراً بانتزاع المعلومات عنها منه.

خاطبت كاليوس بينها وبين نفسها: أخشى يا كاليوس رانسيمو أن تضطر إلى سجني لتحول بيني وبين رؤية رومانو! ولكنها شعرت حتى وهي تتحدّاه بينها وبين نفسها أنه لو أثير لأقدم على سجنها.

في الوقت الحاضر عليها معاملته بحذر لتحصل على أوراق

والدها التي وضع يده عليها بلا شك عندما كان يسوي شؤون سيسو وينظف مكتبته.. ولأنها توقعت ألا تجد صعوبة سألته عنها بشكل عفوي ذات يوم، ولكنها صدمت لأنه أنكر وجودها.

ـ أتعنين وثيقة وفاة والدك؟ وصيته؟

ـ لا.. لدي هاتان الوثيقتان.

ـ ماذا إذن؟

ـ أوراق أعماله التي استلمتها بعد موته.. أعمال غير كاملة.. معظمها مشاريع لم تنفذ، لقد ألقى عليها سيسو نظرة وقال إنها عديمة القيمة.. ولكنني أريد الاحتفاظ بها وأنا متأكدة أنه جلبها معه.

هز كاليوس رأسه:

ـ لم أجد بين أوراق سيسو أوراقاً لها علاقة بشؤون والدك.

ـ لكنها كانت بحوزته.. فهو من تولى أمرها نيابة عني.. وكان يعرف أنني أنوي استردادها!

ـ لا بد أنه أساء فهمك وأتلفها.. ألم تقولي إنها عديمة القيمة؟

ـ أجل.. هي عبارة عن أفكاره التي دوّنها وكان الغرض منها تعزيز المبيعات. ولكنها مشاريع لم ينفذها.. ولقد أكد سيسو هذا.. مع ذلك..

قاطعها غير معتذر: «سأفتش مجدداً.. ولكنني أؤكد لك أنني لم أرَ شيئاً كهذا في المرة الأولى.. هل أنت واثقة أنه لم يرجعها لك؟»

تمتمت: «شكراً لك.. لو سمحت...».

وتركته.. ولكنها لم تنجُ من الريبة السوداء التي سيطرت على عقلها.. لنفترض..؟

فلنفترض أن سيسو وجد شيئاً ذا قيمة بين أوراق ريكاردو..

«منجم الذهب» الذي كان مقتنعاً أنها تجهله، لكنه كان مقتنعاً إلى الحد الذي جعله يتبجح به أمام رومانو؟

لن تستطيع أن تحزر ما هو.. ولا إذا كان ذا قيمة في عالم المنافسة كعالم «كريستوس» في البندقية.. وبالتفكير بتلك المخابرة التي أجراها مع رومانو، تذكرت أن سيسو قال إن كاليوس أظهر فتوراً أمام المشروع الذي قدمه سيسو للشركة.

لكن فلنفترض أن والدها ألقى الضوء على تطور ثوري في عالم صناعة الزجاج؟ ولنفترض أن كاليوس وهو يفتش في أوراق سيسو، اكتشف الأوراق وغير رأيه وتحمّس لهذه الأفكار كما سبق أن تحمّس لها سيسو؟ فماذا ستكون ردة فعله؟

لو كان شريفاً لشاطرها ما عرفه.

وإذا لم يكن.. وآمن أن لديه أسباباً لكراهيتها واحتقارها.. فهل يتلف الدليل وينكر أنه موجود أصلاً؟

لم يكن لديها القوة الكافية لمواجهته.. بل مجرد شكوك لن تنقلها إلى أي مكان.. وفيما كانت تغلي من فرط الإحباط توصلت إلى قرار.. حتى تلك اللحظة، كانت تعد الأيام حتى يسمح لها بترك الڤيلا.. وافترضت أن كاليوس سيحدّد متى يمكنها الرحيل.. ولكنها الآن لم تعد على عجلة من أمرها، وستكون مستعدة للانتظار وقتاً أطول لتقدر على المراقبة والإصغاء والتفتيش عن ثغرة في دروع عدوها. لم يحدث قطّ أن أثار أحدهم غضبها إلى هذا الحد.. لقد تألمت من خيانة سيسو لها ثم احتقرته. لكن ردة فعلها تلك لا تقارن أبداً مع ردة فعلها وذهولها تجاه كاليوس..

حلّت فرصتها الأولى عندما رنّ الهاتف.. كان هناك هاتف قرب

السرير في كل غرفة.. ولأن أحداً لم يرد التقطت سماعة الهاتف..

شعرت بالسعادة عندما سمحت لها فرانسيسكا بنزع ثياب الحداد ورغبت في ارتداء الأحمر القاني لترفع معنوياتها ولكنها تنازلت عن ذلك من أجل خاطر فرانسيسكا فارتدت تنورة رقيقة خضراء، في ذاك اليوم بعدما التقت برومانو أخبرت فرانسيسكا عنه فتذكرته المرأة وإن بغير وضوح وعندما وصل ليصطحبها بسيارته، رافقته بمباركة من فرانسيسكا.. ولم يكن كاليوس موجوداً.

سلكا طريق بادوا المحاذية للنهر فتناولا العشاء في ڤيلا «بالاديان» التي حوّلت إلى مطعم في الجزء القديم من المدينة.. أثناء الحديث تطرقا للحديث عن سيسو.. وفي إحدى اللحظات أغرتها نفسها بقول الحقيقة لرومانو عن فسخها لخطوبتها وعن أسباب ذلك.. أشار إلى أنها تفتقد سيسو بلا ريب فردت بفتور «أجل» وهذا ما دفعه للضغط عليها.

ـ أحببته.. أليس كذلك؟

ردت بسؤال مضاد:

ـ ولماذا تسأل؟

ـ لأنني أريد أن أعرف إن كنت مسحورة بفتنته فقط.. فهو ماهر باستخدام فتنته التي كان تأثيرها مدمّراً في النساء وأكره أن أظن أنه استخدمها عليك.

أيحذرها من شيء يعتقد أنها لا تعرفه عن سيسو؟

ردت بحذر:

ـ لكن، ألا يرغب المرء أن يكون مسحوراً عند وقوعه في الحب؟ ألأنك رجل لا تعرف هذا؟

ـ آه! بل أعرف.. إنها تجربة تبعث السرور في النفس.. ولكنها لا تكون دوماً حباً حقيقياً.. فسيسو مثلاً لم يقدم على الزواج بأية فتاة عرفها قبلك.

ـ هل كان هناك واحدة مميزة قبلي؟

راوغ رومانو في الرد:

ـ أنسيت أنني كنت مسافراً إلى ما قبل الحادثة بأيام؟ والمرة الوحيدة التي اتصل بي هاتفياً كانت يوم الحادثة.

ـ وهل أخبرك شيئاً عني يومذاك؟

ـ أجل.. لقد وصفك.. قال إنه جلبك من انكلترا لأن والديك متوفيان وإنكما ستتزوجان في القيلا.

مسكين رومانو! إنه يبذل ما بوسعه ليظلّ مخلصاً لصديقه.. ولكنه لا يعرف أنها تعرف الحقيقة.. أشفقت عليه فغيرت دفّة الموضوع. والغريب أن سخطها على خيانة سيسو لم يعد له طعم المرارة التي تشعر بها بسبب كراهية كاليوس لها. فسيسو مات ولم يعد قادراً على الاستمرار بخداعه أما كاليوس فمنذ وفاة سيسو وهو يدأب على تغذية نفسه بكراهيتها.

عندما أوصلها رومانو إلى القيلا، طلبت منه الدخول معها ولكنه رفض قائلاً إنه لا يريد التطفل على فرانسيسكا، وقبل الفراق سأل:

ـ هل بإمكاني رؤيتك مرة أخرى؟

عانقها بسرعة ثم دخلت الصالون متوردة الوجه، ولكنها وجدت كاليوس بمفرده هناك وهذا ما توقعته. كان بإمكانها الصعود فوراً إلى غرفتها.. لكنها لم تشأ أن تفوتها انتقاداته عن التهرب من واجباتها.

ولكن ويا للدهشة! لم يبدر عنه أي انتقاد حاد بحقها.. كان يقرأ

أوراقاً ويسجل ملاحظات عليها، ويشرب القهوة التي دعاها لمشاركته إياها.. فقبلت مع أنها لا تثق أبداً برقته بمقدار عدم ثقتها بتحفظه.. وعرفت أنّ عليها أن تخشى ما هو قادم.

عندما قطع الغرفة قاصداً الطاولة التي عليها إبريق القهوة والأكواب دُهشت مرة أخرى.. كان قد ارتدى ثياب المساء وهي عبارة عن سترة وسروال من الحرير.. فاضطرت للاعتراف بوسامته المميزة الشيطانية.. كان واقفاً وقفة ظهر منها جانب وجهه فقط فشعرت بل وجدت عينيها تنجذبان إليه.. إلى الجبين العالي.. والأنف المتكبر، والشفتين المكتنزتين.. يا الله.. نهرت نفسها بحدة! كيف تفكر فيه بمثل هذه الطريقة؟ لا شك أنها فقدت عقلها..

حمل إليها كوباً من القهوة.. ثم جلس يراقبها من فوق حافة كوبه..

سألها: «هل استمتعت بأمسيتك؟»

ـ جداً.. شكراً لك.

ـ أتهزئين من نصائحي، وتؤكدين على حقك باختيار معارفك؟ ها هو.. هذا ما تسميه انتقاداً!

قالت: «لقد قبلت دعوة رومانو للعشاء معه.. ولم أفكر في مناقشة أمر قبولي أو عدمه معك».

ـ أوصلك إلى البيت.. ولكنك لم تطلبي منه الدخول؟

ـ طلبت منه، لكنه رفض.

ـ ما كان يجب أن تتركيه يرفض.. ففي بلادي لا يحدث أن يوصل الرجل المرأة ولا يدخل إلا إذا كانت هذه المرأة إحدى الخادمات.

صرت على شفتيها: آسفة.. لم أعرف أن قواعد الأتيكيت عندكم قديمة الطراز إلى هذا الحد.. في انكلترا، حيث توجد خادمات أيضاً، يعاملن كأية امرأة أخرى.. ولقد رفض رومانو الدخول معي من أجل زوجة أبيك.

ارتفع حاجباه: رومانو؟ وتستخدمين اسمه الأول؟

ـ إن استخدام اسم العائلة موضة قديمة أم لعلك لا تعرف ذلك؟

تجاهل سخريتها، وتقدم ليقف قبالتها مستنداً إلى ذراع فوق رف الموقد:

ـ أتعرفين أن مرافقك ينتمي إلى إحدى المؤسسات المنافسة لنا تجارياً؟

ـ مؤسسة برونو ماليستي؟ أجل.. وماذا في هذا؟

هز كتفيه:

ـ لا شيء على وجه الخصوص.. غير أن هناك بعض الافتراضات قد تبنى بشأن علاقتك بكالينو.

ـ افتراضات؟.. مثل ماذا؟

ـ مثلاً أنّ أحدنا أو نحن أو هم، نفكر في الاندماج أو الشراء.. وهذا أمر بعيد كل البعد عن الحقيقة، ولكنه قد يكون كارثة لأسهمنا خلال تداول البورصة.

بدأت أدوينا تضحك.. وكانت غلطة، فقد تجهم وجهه.

ـ لماذا تجعل من دعوة رومانو كالينو إلى العشاء سبباً للخشية من العواقب العملية؟ آه! حقاً.. ! لقد أطريت غروري!

تقدم إليها وأخذ كوب القهوة ووضعه بعيداً عنها:

ـ الآن أنت سخيفة.. هل ألمح رومانو لك بشيء من هذا؟

ـ كيف تجرؤ على الإيماء..؟

كانت على مقربة شديدة منه فشعرت برغبة في صفع وجهه ولكنه كان يمسك بكلا معصميها.. وأنهى لها كلامها:

ـ إن مرافقك تلاعب بك وأنت معه؟ لأن الهستيريا تجعل الأمر واضحاً، أجرؤ على قول ما قلت.. أنت لا تعرفين جشع كتّاب الأقاويل في صحفنا كما أعرفه أنا.. أنت كنت مستعدة للشجار، بإثارة ضجة لا لزوم لها عن دعوة بسيطة. والواقع أنني أطالب بأن تتأني في المسألة قليلاً.. لئلا يخرج الموقف عن السيطرة.

لكن طلبه هذا تهديد..

قالت: فلنفترض أنني لم أتأنَّ؟ ولنفترض أنني تابعت لقاءاتي برومانو مرة أخرى؟

ـ آه.. بل أعتقد أنك لن تقدمي على هذا.. ضعي الأمر نصب عينك تري أن المنطق والعقل السليم يمنعانك من الموافقة على ما أقول.

ـ أتقصد أنني لا أملك العقل والمنطق السليم؟

ـ ربما.

وترك هذه الكلمة وما فيها من إهانة معلّقة في الهواء. ثم دنا من الباب فأطفأ أنوار الغرفة واحداً واحداً.. وإصبعه على آخر الأزرار، قال:

ـ لو كنت مكانك لأويت إلى النوم، إلا إذا رضيت بالبقاء معي في الظلام.

خرجت.. لكن هل سترى رومانو بعد هذا؟ نعم ستراه.. وكان أن خرجت معه ثلاث مرات أخرى وفي هذه المرات الثلاث لم تتلق

أي تعليق من كاليوس.. ولكن رومانو قال لها في لقائهما الأخير إنه لن يتمكن من رؤيتها فترة ما لأنه مسافر إلى الخارج في رحلة دعائية أخرى لمؤسسته.

ـ هذه المرة سأسافر إلى أميركا الجنوبية ولن يكون لي عنوان ثابت.. ولكنك ستستمرين بالاتصال بي.. أليس كذلك؟

ـ متى أخبرتني أين وكيف.. كم ستبقى بعيداً؟

ـ ثلاثة أشهر على أبعد تقدير.

ـ ربما لن أكون هنا بعد هذا الوقت.

ـ آه! أين إذن؟

ـ سأعود إلى انكلترا.. تعرف أنني بقيت هنا لمساعدة السنيورا رانسيمو في هذه الأوقات العصيبة.

ـ ومساعدة نفسك على ما أعتقد.

مد يده إليها عبر المائدة:

ـ يجب ألا تكرهي مني هذا.. لكنك لا تعرفين كم تمنيت لو التقيت بك قبل سيسو!

وليتك تعلم كم وددت لو لم ألتقه قطُّ.. ضغطت على أصابع رومانو شاكرة.

كان سيتصل بها في المساء ليخبرها بموعد سفره إلى جنوا وموعد طائرته من هناك، ولكن عندما لم تسمع شيئاً منه، تعجبت واستنتجت أنه مشغول كثيراً بحيث لم يستطع الاتصال.. ما إن حلت الساعة الخامسة حتى قلقت عليه كثيراً.. وعندما سألت الخادمات أخبرنها أنها لم تتلق أي اتصال.. لكن إحدى الخادمات قالت إنها ردّت على اتصال قام به السنيور كالينو وإن السنيور رانسيمو أخذ منها

السماعة وصرفها.

غضبت أدوينا.. إنه يوم الأحد لذا مكث كاليوس يومه كله في المنزل، وكان بإمكانه إيصال مخابرة رومانو لها أو رسالته.. وبما أنه لم يحوّل لها الاتصال فهذا يعني أنه يتعمد التدخل بشؤونها، وهذا ما لن تسمح به..

كان لكاليوس مكتبة يستخدمها حين يعمل في المنزل. وكان موجوداً فيها.. كان بابها مفتوحاً، ويبدو أنه كان يتوقع قدومها لأنه عندما دخلت قال لها: «توقعت قدومك».

ـ فهمت أن رومانو كالينو اتصل اليوم بي وترك رسالة لي.

وقف ليواجهها:

ـ اتصل كالينو.. ورددت عليه، لكنه لم يترك رسالة لك.

ـ لكن.. كنا على موعد مؤقت لهذه الليلة! وهو مسافر إلى الخارج عند الفجر.. وكان سيتصل بي ليؤكد الموعد..!

ـ أجل.. هذا ما قاله لي.. لكن بعدما قلت له شيئاً لم يكن يعرفه تكدر كثيراً وقال إنه لا يريد رؤيتك مجدداً، وإنه لا يريد أي اتصال كتابي أو هاتفي معك في المستقبل.

ـ لكن.. ماذا أخبرته ليرفضني هكذا؟ هل أخبرته أنني فسخت خطوبتي بسيسو قبل موته؟ لا أظنك ترغب أن يعرف أحد هذا!

هز كاليوس رأسه:

ـ لا.. ليس هذا.. قلت له إننا أنا وأنت توصلنا إلى تفاهم، وإنك خطيبتي الآن رسمياً..

* * *

٣ ـ تحت رحمة عدوها

حدقت أدوينا إليه برعب وعدم تصديق.. همّت بالكلام ولكنها اختنقت بالكلمات فتلعثمت:

ـ لا يعقل أن تختلق كذبة كهذه لرومانو بسبب رغبتك في إبعاده عن مقابلتي ثانية! هذا أمر.. متوحش.. ولا أعتقد أنه صدقك!

ـ ألا تعتقدين أنه صدقني؟ لماذا قرر إذن قطع أية علاقة بك..

ـ لا يمكن.. يستحيل أن يقول لك هذا!

ـ أؤكد لك أنه قال هذا.. وهذا أمر غير مستغرب.. لأنه عرف أنك تخفين عنه التزاماتك وتتابعين علاقتك به. إنه شاب شفاف مرهف المشاعر وأنا الآن أتصوّره يتساءل عما إذا كنت تريدين مصارحته بأمرنا أم تأملين في إبقائه معلقاً بعد زواجنا.

شهقت أدوينا:

ـ أنت لا تستطيع فهم شيء كهذا! أنا معجبة به وهو معجب بي لكننا لسنا أكثر من صديقين..

ـ صديقين حميمين؟

ـ .. يجب أن أتصل به لأكذّب كل ما قلته له.

ـ وكيف تقترحين الاتّصال به؟

ـ قبل التحاقه بالقطار إلى جنوا.

ـ لسوء الحظ.. بسبب ما جدّ قرّر الرحيل في قطار مبكر.. ولا ريب أنه سافر الآن.

ـ سأتصل به في المطار.

هزّ رأسه: اتصلي به ولكن عليك أن تتحملي الجرح الذي سيصيبك حين يرفض الرد على اتصالك.. وهذا ما سيفعله فعلاً.. على أي حال لا بد أن لديك عنوان تستطيعين الاتصال به خلال سفره؟

عندما لم تقل شيئاً، أردف كاليوس:

ـ سيعود بالتأكيد إلى ڤينيسيا وعندئذ تتمكنين من إصلاح أمركما.. هذا إن كنت ستجدين أدلة دامغة لتدحضي كذبي.. هل تفهمين ما أعني؟

ـ أنا لا أفهمك.. فأنت كاذب بشكل شنيع لا يطاق!

ـ أفضّل أن أسمي هذا واقعاً سابقاً لأوانه.

ـ واقع؟ أي واقع؟

ولم تجرؤ على فهم مراده.

ـ الواقع الحالي هو أن نقدم على هذا.. كما آمل.. فكما قلت، المسألة ليست كذبة.. بل تحايل على الحقيقة التي ستكون حتمية مع عودة كالينو.

الآن، لم يعد هناك مجال لتجاهل قصده..

ـ لا ريب أنك فقدت رشدك وإلا ما اقترحت شيئاً كهذا.. أنت.. تتزوجني؟ أنا.. أتزوجك؟ لماذا.. أنت لم تثق بي.. ووقفت ضدي منذ وفاة سيسو! أتعرف ما فعل هذا بي؟ لقد جعلني أكرهك.. أكرهك.. هل تسمع؟

قال دونما اكتراث:

ـ أمر مؤسف.. لكنه أمر متوقع من امرأة نصف مجنونة مثلك. مع أن ذلك لا يعني أن لا سبيل لشفائك.. من المستحيل بعد الزواج أن تبقي بلهاء طوال الوقت، وأنا واثق أنك تفهمين ما أعني؟ وأعني كل ليلة، وطوال النهار.

شعرت بالتورد الذي حرق وجنتيها وغلف كل جسمها.

ـ إن زواجاً كهذا لن يكون أبداً.

ـ آه.. لكن يجب أن يكون.. الطبيعة لا تهتم كثيراً بالحب واللطف في الزواج.. تعرفين هذا.. إنها تهتم فقط باستمرارية الأجناس.. فهل تجدين في هذا قسوة؟

ـ تقترح عليّ الزواج بعد أسابيع من موت سيسو فهل تفترض أنني قد أصدق أنك جاد؟..

ـ أنا جاد.

ـ إذن لماذا جادلتني ومنعتني من مقابلة رجل آخر؟ وإذا تركتك تقنعني بذلك، فأي نوع من الفضائح يمكن لدائرة أصدقائك اختراعها من هذا؟

ـ إن كان هذا الرجل هو أنا.. شقيق سيسو.. فلا مجال لأية فضيحة.

ـ أنت تتراجع عما قلته لي عن بقائي فترة «محترمة» هنا! وماذا عن زوجة أبيك؟ كيف ستنظر إلى زواجك بي..

ـ لقد نظرت إليه.. وهي موافقة.

ـ وهل أخبرتها أنك..؟

ـ أجل.. اسمعي..

ـ لا حق لك! ولن أصغي إليك!

أسرع إلى الباب فأقفله ثم وقف وظهره له:

ـ بل ستسمعين.. الآن.. لقد اخترت الارتباط بعائلة إيطالية.. بالاختصار.. نحن نضع العائلة فوق كل اعتبار وعلى الأخص فوق الارتباطات العاطفية التي أظهرت بوضوح أنها لا تدوم، أولم ترغبي في الانفصال عنه؟ لكن الاستمرار مهم جداً.. وإذا انفصم خيط واحد مما يؤمّن هذا الدوام، كما حدث مع موت سيسو، فلن يجد أحد أية فضيحة في حياكة خيط آخر من العائلة ذاتها.. ما أن يصبح الأمر ملائماً، ومقبولاً من الطرفين حتى يُغضّ النظر عن الرومانسية.. تفهمينني بلا شك؟

ومع أنها لم ترغب في الإفضاء إليه بشيء.. إلا أنها وجدت مثل هذا التصرف غريباً كثيراً.. كان عليها أن تعرف أن إيمانه بحقوق عائلته وواجباته نحوها أصبحت جزءاً منه كرجل.. في أشياء أخرى قد يكون بلا قلب وشريراً كسيسو تماماً.. لكن يجب أن تحترم ولاءه لتقاليده الضيقة الأفق.. هكذا أشارت إلى أنها تفهم ما يعنيه بهزة رأس.. فقال بحدة:

ـ جيد.. كان زواج فرانسيسكا الأول مدبراً، ثم تزوجت مرة ثانية بأبي وهي تعرف أن لا مجال للإنجاب.. عندما خطبك سيسو أملت أن تستمتع بأحفاد من ابن زوجها.. وإن تزوجنا حققنا لها هذا الحلم.. فهل تجرؤين على حرمانها من هذا؟

صاحت بجنون:

ـ بالتأكيد أستطيع! فأنت تتلاعب بي وتستخدمني كحجر شطرنج في خططك في الوقت الذي تقدر فيه على اختيار أية امرأة

لتتزوجها.. ولا حاجة بك لإقناعي.

ـ وهل تكرهين هذا التوقع كثيراً؟

ـ وما رأيك؟

ـ إذن يجب أن أضغط على ضميرك بالقول إنك أنت، وليس أية امرأة، من تدين بدين كبير لعائلتي.

أجفلت، فأردف: لا حاجة بي لتذكيرك بمسؤوليتك المعنوية، فرسالتك هي التي دفعت سيسو للتهور الذي كانت نتيجته الموت.

ـ أرفض أن أكون مدينة لعائلتك بهذا الخصوص.

ـ لا يهمني رفضك أو قبولك لأنك تتحملين أنت المسؤولية.

ـ لماذا تلومني؟ ومن أنت؟ من أنت كاليوس رانسيمو حتى تجرؤ على مثل هذا القول.

لم يؤثّر فيه غضبها.

ـ أنا شقيق سيسو الذي أشعر بمسؤولية تجاهه.. وأنا أنوي أن أتحملها.

عرفت عدم جدوى النقاش معه، فسألت:

ـ عندما أقول «لا» فهذا يعني رفض لا عدول عنه. أعتقد أنك تريد مني أن أرحل في أسرع وقت ممكن!

ـ لا أستغرب أن يكون رفضك نهائياً، ولكن فرانسيسكا مولعة بك لذا ستشعر بالأسى على رحيلك.. أما علاقتك بها فلن تعود كما كانت.. أليس كذلك؟

ابتعد عن الباب وكأنما يفسح لها طريق الخروج من القيلا حالاً.. ولكن هذه الحركة ويا للغرابة ذكرتها أنها لو غادرت في غضون يوم أو يومين فلن تتمكن من كشف غشّه وخداعه.. ورحيلها

يعني أيضاً أنها لن تعرف الحقيقة أبداً. أما الزواج به فسيسمح لها بهذا كله وستجد الفرصة للانتقام منه.

فيما بعد أدركت مصدومة مرعوبة أنها لم تفكر كثيراً في قرارها قبل أن تسمع نفسها تقول له:

ـ وإن لم يكن رفضي نهائياً.. فلو وافقت على الزواج بك بناء على أسبابك أنت فعليك القبول أنني سأقول نعم لأسباب خاصة بي لن أذكرها لك.

ماذا قالت؟ ماذا فعلت؟ كان بإمكانها الخروج من هذا المنزل حرة، ولكنها عوض ذلك ألزمت نفسها بأمر لا ترغب فيه لمجرد الرغبة في انتقام قد لا تتمكن من تحقيقه.. راقبت لترى ما ستكون ردة فعله وخافت سخريته التي سيظهرها بسبب انقلابها المفاجىء الذي فاجأه بلا ريب.

لكن يبدو أن النتيجة لم تكن أكثر مما توقع.. فقد قال:

ـ طالما تتقبلين بناء على شروطي فلن أهتم بأسبابك التي دفعتك للقبول.. يكفيني أن يكون لديك التعقل لتعرفي أن العدالة تتطلب منك هذا.. وبما أننا اتفقنا، فلا داعي إلى تأخير الترتيبات الضرورية..

تاقت أدوينا للإشارة إلى أنهما ما كانا ليتوصلا إلى قرار متفق عليه لو تمسكت بقرارها الأصلي، لكنه اعتبر استسلامها المشروط قبولاً فعلياً.. وها قد فات الأوان.

سألت: «هل تنوي الزواج كَنَسِيّاً؟»

ـ بالتأكيد.. ولكنني أريد أن يتم ذلك بهدوء مع بعض المدعوين أو دونهم حتى.. وهذا ما سيفهمه الناس نظراً للظروف. ولن يكون

www.elromancia.com

هناك رحلة زواج.. فلا وقت لدي لذلك.

قطع الغرفة ليلقي نظرة على مذكرة موجودة.

ـ أجل.. السابع والعشرون، إذا كان باور ريشوني قادراً في هذا التاريخ.. هل يناسبك هذا؟

ـ يجب أن يناسبني.. أليس كذلك؟

ـ وهل ستبلغين فرانسيسكا الخبر أم أبلغها أنا به؟

ـ سأبلغها أنا.

ارتدت إلى الباب ففتحه لها:

ـ وهل أثق بك؟

ـ تثق بي؟

ـ ألا تهربي ليلاً تاركة رسالة آسفة جداً.. على المكتب؟ فمن غير المناسب أن أضطر إلى منعك مرة أخرى!

ـ لن تضطر إلى هذا.. ففي هذا الزواج ليس هناك من مثل عليا أخسرها.. لذا بإمكانك الاعتماد على وفائي بالكلمة التي أعطيتك إياها.

ـ وأرجو كذلك الوفاء بواجباتك كزوجة؟ بكل واجباتك كزوجة!

فهمت مضامين التهديد ومع ذلك تركته بكل وقار.

لم يسبب الإعلان المتحفظ عن خطوبتهما الزائفة الساخرة، أية ردة فعل أكثر مما قاله كاليوس. لكن أن يتخذ رئيس مؤسسة كريستوس عروساً له كان خبراً مثيراً في دوائر رجال الأعمال في المدينة.. فقد تلقى كاليوس رسائل تهنئة من قبل الأشخاص الذين أرسلوا هدايا عرس لسيسو وأدوينا، وأعادوها مرة أخرى لكاليوس وأدوينا.. وبدا من المقبول بشكل عام أن اختيار كاليوس لمراسم

زفاف خاصة هو اختيار صحيح.

فرانسيسكا اعتبرت هذه الخطوة نهاية سعيدة للضغط والحزن اللذين عانوا منهما.. لم تصدق أن الحب قد يزهر فجأة بين أدوينا وكاليوس.. ولم تدع أن هذا الزواج نعمة من النعمات تنبعث من بين الرماد، لهم جميعاً.. وكانت مقتنعة أن أدوينا ما زالت على حب سيسو الذي لا يسهل نسيانه بحسب رأيها.

في أحد هذه الأيام الصعبة، برزت مسألة خاتم خطوبة سيسو مرة أخرى.. فقد توسلت أدوينا إلى فرانسيسكا أن تقبله وفي هذه المرة لم تعارض فرانسيسكا:

ـ من الطبيعي أن تضعي في إصبعك خاتم كاليوس الذي سألني أي حجر كريم قد تفضلين، فقلت له الزمرد لأننا يوماً تحدثنا عن هذا واتفقنا على الزمرد.. لذا أرجو أن يقدّم لك خاتماً من الزمرد.

وقدّمه لها.. ولكن بطريقة تتماشى مع اتفاقهما الواقعي البارد.. ومع ذلك شعرت أدوينا بأنها خدعت.. لأنه اكتفى بوضعه على طاولة الزينة مع مذكرة تقول: إذا كان يناسبك، فليكن شكرك إياي بوضعه في إصبعك.. لكن خاتم الخطوبة يجب أن يقدم بحنان.

الآن بعدما تبودلت الوعود وحرس الخاتم الزمردي الخاتم الذهبي البسيط الذي وضعه كاليوس في إصبع أدوينا بعد مراسم زواج بسيطة، لم يحضرها سوى فرانسيسكا والأب ريشوني ومساعده، تبعها فطور زفاف احتفاءً بالموجودين فقط. كانت ساعات العصر شبيهة بالأيام الأخرى.. ورأت أدوينا أمامها صحراء متنامية من الأيام القاحلة وتساءلت كيف يظن كاليوس أنها ستقضي أيامها؟ هذا إذا فكر في الأمر أصلاً.. كانت تعمل والعمل أمر اعتادت عليه والآن ماذا

ستتشارك مع كاليوس في هذا؟ لا شيء إلا لعب دور الزوجة الخانعة الخاضعة لرجل متعجرف مغرور ذي سلطة انتزعها لنفسه بنفسه؟

في الليلة السابقة، نامت بمفردها في غرفتها.. أما اليوم، فلا بد أن فرانسيسكا أعطت الأوامر للخدم بنقل أغراضها إلى غرفة النوم الرئيسية في الوقت الذي يكونون فيه في الكنيسة.. عندما عادوا كان كل شيء قد نقل إلى مكانه وأصبحت أدوينا مالكة لغرفة ملابس مزدوجة لا تفصل بينها وبين غرفة كاليوس غير حمام.. وحرف R الرمز فوق السرير الكبير الذي أصبح الآن رمزاً لاسمها.

تدبرت فرانسيسكا أمر تناولهما العشاء في الخارج بكل لباقة.. وبعد تناولهم المرطبات، تركهما كاليوس ليغير ملابسه.

قالت لأدوينا: ليس الأمر سهلاً دائماً.. أول وجبة طعام معاً، أول.. ليلة. أنا مثلك، كان عندي حبيب شاب لم أتزوجه ولكن والديّ كانا يخططان لزواجي بشخص آخر وكان عليّ أن أطيعهما.. ومع أنني أعرف أنك تقدرين وتحترمين كاليوس، ولكن هذا لا يغير أنك قد تحبينه قريباً ولن يحدث هذا إلا بعد زمن عندما يصبح سيسو من الماضي.. لذا ستكون واجبات الزواج صعبة عليك في البداية كحالي تماماً.. قد يتفهم كاليوس هذا، وقد لا يتفهمه.. لكنه ما كان ليتزوجك لولا أمله في أن يجعلك سعيدة.. ولولا رغبته في تعويضك عن خسارة سيسو.

مسكينة فرانسيسكا التي لا تعرف شيئاً عن حقيقة أي منهما.. ليس بإمكانها غير الافتراض بأنّ التقليد والخبرة قد علمت فرانسيسكا عدم رؤية أي شرّ في الزواج المدبر.. وهي لم تسأل أدوينا يوماً عن سبب موافقتها ولم تظهر أي فضول بشأن انصراف رومانو عن مسرح

أدوينا.

لم ينضم كاليوس إليها إلا بعد خروج فرانسيسكا وكان العشاء على وشك أن يقدّم على المائدة.. تناولا السمك والبط مع صلصة لذيذة، تبعها حلوى مزينة بالفريز.. وكانت فرانسيسكا قد رتبت للمناسبة باقة زهور خاصة وضعت في مكان كاليوس وأرفقت الباقة بتعليمات أن يثبتها في فستان أدوينا، وثبتها قبل أن يجلسا بلا تردد. في اللحظات القليلة التي انكبّ فيها على ما يفعل، اقترب منها بشكل حميم أكثر من أي وقت مضى، وفيما يداه مشغولتان ورأسه الأسود منحنٍ إلى مستوى صدرها، أحست بالإثارة بسبب قربه منها فتوترت وشعرت بأن لمسة أصابعه الخفيفة أثارتها رغماً عنها.. وتساءلت عما إذا لاحظ اضطرابها، وخفقان قلبها فلو كان مكانه أي رجل آخر لاستغلّ هذا.. أما كاليوس؟ فلن يفعل هذا أبداً!

كانت أدوينا قد اتخذت قراراً بالتفتيش عما أغراه بالزواج بها.. أي أوراق أبيها.. لكن الليلة الأولى على زواجهما وقت غير مناسب لهذا.. في هذه الليلة تركت له حرية اختيار موضوع محادثتهما..

كان لديه عادة، وهذا ما لاحظته سابقاً، حين تكون يداه مسترخيتين فوق مسطح، أن يترك سبابته فوق الإصبع الوسطى كساقين متقاطعين، وكان هذا أمراً مميزاً له. وهي تنظر إليه عنّت على بالها فكرة غريبة فإذا كان من الممكن لامرأة أن تحب يدا رجل دون حب الرجل نفسه فهي بالتأكيد ستقع في حب كاليوس.

بعد العشاء شاهدا برنامجاً وثائقياً على التلفزيون، يدور عن حياة الفلاحين في جنوبي إيطاليا، عندما انتهى ذكر كاليوس عدة وجهات نظر في هذا الموضوع.. وأحست أدوينا أن من الممكن أن يكونا

صديقين.. تناولا العشاء معاً، ثم ذهبا للإصغاء إلى محاضرة ما. ترى ألديه مثلها مخاوف من الليلة المرتقبة؟

أخيراً قال إنه سيدخن سيكاراً في الحديقة، وهذا يعني أنه يعتبر الأمسية منتهية.. وكانت غرفتهما مضاءة والأغطية مرفوعة عن السرير والستائر مسدلة، والمناشف دافئة في الحمام.. عندما صعد كاليوس استخدم الباب من الممر إلى غرفة ملابسه وحين دخل الحمام كان يرتدي روباً طويلاً مفتوحاً حتى وسطه.. دنا من السرير حيث كانت أدوينا واقفة بثوب نومها الأخضر.. مدت يدها لتأخذ الروب المماثل لروبه، ولكنه منعها بأن أجبرها بلطف على الجلوس إلى حافة السرير، إلى جانبه.

قال دون أن يسأل: «أنت خائفة».

هزت رأسها بنعم.

ـ مني؟

أجابت مرة أخرى: «نعم».

ـ ولكن هذا كله مجرد ختم إضافي لمراسيم هذا الصباح.. وفي الصباح لم أرك متوترة؟

ـ هذا.. أمر.. مختلف.

ـ كيف؟ فما ذلك إلا مجرد توقيع آخر على عقد مدني.. كتب ليوافق أغراضنا. أعتقد أنه كان لديك خوف من الليلة الأولى التي قضيتها مع من تحبين؟ أكنت تشعرين بالخوف من أن تخيبي أمل حبيبك أو كنت تخشين أن تجديه حبيباً سيئاً.. لكن ربما لم يكن لليلة الأولى التي قضيتها مع سيسو أية قيود؟ هل كان عشيقك وأنتما مخطوبان؟

ابتعدت عنه عابسة: «لا!»

ـ ولا رومانو كالينو؟ ولا أي رجل قبلهما..

ـ لا..! بأي حق تسألني؟ قد أدعي أن لي الحق في معرفة عدد النساء اللاتي عاشرتهن قبل زواجك بي؟

ـ بكل تأكيد.. ولو كنت آبه لرأيك بي لأعطيتك الرد الذي يرضيك.. لكن بما أنني لا أهتم فقد أقول لك الحقيقة.

ـ وماذا ستخبرني؟

ضحك:

ـ لا شيء.. تعالي إلى هنا.

لم تتحرك ولكنه اقترب منها ووضع ذراعه حول كتفيها ورفع ذقنها بيده الأخرى وتمتم:

ـ بإمكاننا جعلها فقرة مستحبة في معاهدتنا.

ثم قبلها بحرارة ليغريها بالاستجابة.

كان يجب أن تعرف أن شيئاً كهذا سيحدث.. لكنها لم تستطع أن تصدق أن كاليوس البارد المسيطر على نفسه قادر على الإغواء مع أنه لا يشعر بشيء نحوها.. وعندما راحت يداه تتحركان على قدها الرشيق تساءلت إذا كان يتصور أنها امرأة أخرى.

كان من الصعب على شفتيها عدم الارتعاش وعندما انفرجتا، ضحك ضحكة صغيرة راضية، وكأنه حطم جداراً ما بينها وبينه.. ثم وضع يديه إلى جنبيها ليمنعها من الهرب.

حثتها إرادتها على دفعه بعيداً.. وحدثتها نفسها: أريه أنك غير مدربة وغير مستعدة للتجاوب مع شخص لا يحبك ولا تحبينه ولكن جسمها رفض الإطاعة.. وما هي إلا لحظات حتى رفض جسمها

كذلك الانصياع لإرادتها.. كان هذا أمراً لم يسبق لها أن اختبرته.. والغريب أنها استجابت لنداء الرجل.. وقبلت بلهفة كل ما كان يريده منها.. في لحظات الإذعان له لم يعد العدو الذي تعتبر.. ولم يعد كاليوس رانسيمو غير ظل لا خطر منه.

شعرت بأنها ستقبل دائماً الاستجابة له، لكنها عادت إلى أرض الواقع بصدمة حين أدركت معنى هذا.. وكم يعني له أن يستعبدها بهذه الطريقة.

عندما عنت لها هذه الفكرة ارتدت إلى جنبها متأوهة آهة صغيرة، وبدأت دموع الإذلال بالانهمار.. وانتظرت.. ماذا الآن! في هذه اللحظات هي غير قادرة على القبول بلطفه.. وإذا لم يكن، لكان من السهل أكثر أن تكرهه.. وكأنه قرأ أفكارها فتحرك ليطل عليها من فوق الكتف التي أدارته له.

سأل بصوت لا أثر فيه للحرارة:

ـ ماذا قلت لك؟ الكراهية هي للنهار وهي ما سنعود إليه غداً.. أما الليلة فقد استمتعنا كثيراً وسنكرّر الأمر مجدداً.. نامي الآن.. فقد اجتزت أسوأ مراحل المرارة.

ولكنها لم تذق طعم النوم فبعدما سمعته يدخل إلى غرفة ملابسه، انتظرت متوترة أن يعود.. لكنه لم يعد.. وتذكرت أن هناك سريراً ضيقاً في غرفة ملابسه.. وأدركت أنه ينوي تركها بمفردها في الليل.

* * *

٤ ـ كيف سيستغلّها؟

أخيراً حلت عليها نعمة النوم وعندما استيقظت كان الصباح قد عمّ الكون.. للوهلة الأولى لم تفكر في شيء.. وكأنه صباح كسائر الصباحات الأخرى.. ثم أصبح صباحها الأول كزوجة لكاليوس شيئاً آخر فيه رهبة ما.

قبل خيانة سيسو لها، تساءلت كيف سيكون أول يوم من شهر عسلهما.. كانا سيتمازحان ويتداعبان.. وكانت تتصور أنهما سيكونان حبيبين شابين تملأهما الغبطة والفرح وكانت تظن أنهما لن يكونا شخصين مختلفين كما ستكون هي وكاليوس هذا الصباح.. ليلة أمس عرفها كاليوس بالرباط المقدس بينهما.. واستغل حاجتها للحب، بجعلها تستجيب برباط جسدي، أنكره في السابق مدعياً أنه مجرد «فقرة في عقد».

لقد مثّل دور الحبيب ببراعة.. أجل. وهذا جزء من براعته، ووقعت كالمسحورة في أحابيله، وأقنعها تقريباً بحاجته إليها.. أولم يستخدم كلمة المتعة لزواجهما؟.. أولم يعد بتكرار ذلك؟.. وهو يلقي الكلام جزافاً حذرها من هذا وذكّرها بواجباتها كزوجة.. أما استمتاعه بها، فلا يعدو أن يكون إظهاراً لقوته كرجل عليها؟ لا.. وهي متأكدة أن ليلة أمس لم تغير أو تحسّن علاقتهما.. اليوم وغداً

سيعودان ذينك الغريبين اللذين يجمع بينهما العداء..

جعل كاليوس التباعد سهلاً عليها.. فعندما دخل إلى غرفتها مرتدياً ثيابه أبدى تحفظاً من جهته. ولكنه انتظر خروج الخادمة وكانت الخادمة في هذا الوقت قد دخلت حاملة القهوة، حتى يتحدث إليها عن خططه المالية لمستقبلها:

- سأرسل السنيور لوسيانو مسؤول أعمالي الخاصة، ليراك هذا الصباح وسيشرح لك كيف تستثمرين المبلغ الذي خصصتك به.. موعدك معه في الحادية عشرة، لذا كوني في المنزل بانتظاره.. لو سمحت.

اضطرت أدوينا إلى ابتلاع ثورتها فهي لا تريد القبول بشيء منه:

- نظراً للظروف، هل تخصيص مبلغ لي أمر ضروري؟

- بالتأكيد.. فالمبلغ سيشمل الاحتياط المسبق لأولادك في حال موتي.

- دعها تكون من النفقات الدائمة.. فما زال لدي مال أملاك والدي إذا احتجت شيئاً.

- وهل يكفي هذا لتمويل مركزك كزوجة لي؟ هراء! أترغبين في التقدم لطلب رخصة القيادة والحصول على سيارتك؟

إنها مضطرة لقبول مصروفها اليومي.. ولكنها لن تقبل سيارة منه.

- لا.. شكراً لك.

- حسناً.. استخدمي دينو ليقلّك إلى المدينة وستستمتع فرانسيسكا باصطحابك معها.. على فكرة، أرجوك نادها «مادرينغا» فهي الآن زوجة أبيك أيضاً.. هل هناك ما تودين تسويته في الوقت

الحاضر؟

وكأنه يقفل نقاشاً عملياً بسؤال يعرف أن لا رد عليه.. شعرت أدوينا أنه لا يجري معها مقابلة عمل، بل كأنه يقابل إنساناً لديه مشاكل يريد حلها.. مع ذلك.. ليلة أمس.. لا! يجب ألا تفكر في ليلة أمس.

قالت: أجل.. أريد معرفة ما تتوقع مني القيام به من الآن فصاعداً.. كيف سأملأ وقتي؟

- كيف؟ كما فعلت حتى الآن.

- كما كنت وأنا ضيفة عليك؟

- ولماذا لا.. الواقع أن وضعك سيكون مختلفاً لأنك من وقت إلى آخر ستقومين ببعض الاستقبالات الاجتماعية والعملية لي.. وما أن تعتقد فرانسيسكا أن الأمر مناسب لتوجيه الدعوة حتى تقابلين أصدقاءنا. لكن قولي لي.. ما هي فكرتك عن الحياة الزوجية التي كنت ستعيشينها مع سيسو قبل أن تقرري الانفصال عنه؟

- أنا.. فكرت أنه سيكون لي منزلي الخاص.. شقة أعتني بها.. وأننا في أوقات فراغنا سنخرج للسباحة.. للعب.. أو للعمل لأنني كنت أريد أن أتخذ لي عملاً.. على أي حال، من المعتاد جداً في انكلترا أن تعمل الزوجات، وطالما كنت فتاة عاملة.. الواقع أنني تساءلت إن كان هذا ما جعل أبي يحثني على الاتصال بكم.. فربما بسبب فشله أمل أن تجد لي عملاً في مؤسستك، ولكنني لا أعرف شيئاً عن هذا.

سألها: حقاً؟ لم أكن أعرف أن لديه أملاً كهذا.. وهل فكرت في الأمر أيضاً؟

- لم يخطر ببالي.. لقد نفذت وعدي بالكتابة لكم وفكرت أنه يريد أن أقيم علاقة جادة معكم.

- وهل فكرت بعد اتصالك بسيسو أن الزواج به أسهل لكسب العيش من العمل في مؤسستنا؟ ثم أحسست بوخز الضمير فجأة فقررت الهرب؟

لم تستطع أدوينا إلا النظر إليه بذهول وعجز.. بإمكانها الاعتراف له بالحقيقة عن رغبتها في الخلاص من سيسو.. لكن هذا قد يفسد خطتها ويجعلها لا تعرف إلى أي مدى هو متورط بخيانة سيسو الذي أراد استغلال أوراق أبيها.. وبما أن فرصة الانتقام التي أرادت تحقيقها بزواجها به، أكثر أهمية لها من الدفاع عن قضيتها لزمت الصمت وتجاوزت الإهانة بصعوبة. كانت في السرير أسيرة الصينية الموضوعة على ركبتيها، عرفت أنه فتر نظرتها اليائسة إلى غرفة ملابسها كما شاء إذ وقف ليخلصها من الصينية وقال لها:

- آه لا! لا تفكري في مهزلة إقفال الأبواب.. أرجوك! الواقع أنه لن يكون هناك أبواب مقفلة، أتفهمين هذا؟ وعلى السنيورة كاليوس رانسيمو ألا يراها الناس تعمل.. افهمي هذا أيضاً.. فهذا أمر..

ثم توجه إلى الخارج ولكنه قبل أن يصل إلى الباب ارتد:

- في هذه الأثناء.. ضعي على وجهك بسمة عروس راضية.. من أجل مادرينغا.. أرجوك.

في لهجته هذه أوامر أيضاً..

لم يطل الأمر كثيراً بالنسبة لأدوينا لتدرك أن علاقتها اليومية بكاليوس لن توفّر لها فرصة للاطلاع على عمله ولن تخوّلها معرفة شيء عن أوراق والدها المسروقة.. وكان تفكيرها قد استقر على

رأي يقول إنه ما كان لينكر وجود تلك الأوراق لولا وجود غرض شرير من ورائها.. قد تكون مخطئة.. لكن سيسو عرف شيئاً لم تعرفه.. ولأن كاليوس وضع يده على أوراق سيسو فهذا يعني أنه وضع يده أيضاً على أوراق والدها وأدرك قيمتها.. حارت في أمرها فهو لا يأتي إلى الڤيلا حاملاً معه أي شيء من خططه أو أوراقه.. إذ كان يحلّ مشاكله العملية كلها في مكتبته، ولا يتناقش مع فرانسيسكا بأي عمل.. وكان يعي أن أدوينا على معرفة بسرّ صناعة الزجاج والكريستال، لكنه اختار تجاهل الأمر تماماً. ربما لإبعاد تفكيرها عن حاجته إليها، أو ربما بدافع تعصب جنسي بأن على النساء عدم مشاركة الرجال في العمل.

عرفت أنه مهما تكن أسبابه سيحتفظ بسرّه لنفسه ويحرمها من معرفة أي شيء عنه سوى معرفتها به كرجل.. ولن يسمح لنفسه بإظهار ما هو أكثر من اهتمام جسدي بحت بها. وهذه بلا شك مقاييس عقابه لها.. عقاب على جريمة لم ترتكبها.

ظهر في الواجهة مقتها لطريقته في معاملتها في إحدى الليالي التي قامت خلالها بلعب دور المضيفة لستة زملاء ومنافسين من زملائه ومنافسيه في العمل خلال العشاء.

قدمها كاليوس لكل منهم، فأخذوا يتحدثون إليها بأدب.. وكانت تجربتها الأولى كمضيفة ولكنها كانت المرأة الوحيدة بينهم..

هنأوها على حسن معرفتها بالإيطالية، لكنهم لم ينتظروا ليعرفوا أن الإيطالية لغتها الثانية.. سألوها هل أحبت البندقية، وهل لديها أقرباء في إيطاليا، وهل صحبها كاليوس إلى روما؟ ولكنها شعرت أن الفتاة الإنكليزية التي تزوجها كاليوس بعد موت خطيبها كانت غريبة

بالنسبة لهم وأنهم وجدوا صعوبة في تقبلها في وسطهم.

أحست بالتوتر.. فلا بد أن كاليوس أخبرهم شيئاً عن ماضيها العائلي، وعن معرفتها بصناعة الزجاج، كان والدها وزملاؤه على قلتهم يعتبرونها نداً لهم.. لكن هؤلاء العظماء في عالم الكريستال، تجاهلوها واكتفوا بإلقاء ابتسامة اعتذار من وقت لآخر.. وعندما رمت ملاحظة تعرف أن لها أهمية تقنية، تدخل كاليوس بسرعة لا تصدق وحوّل دفّة الحديث إلى شيء آخر.. فهل تراه يخشى أن تتجسس عليه صناعياً؟

عندما تركتهم ليدخنوا افترضت أنهم سينضمون إليها في الصالون، لكن كاليوس وهو يرافقها إلى الباب همس بأنهم سيبقون، وقد ينفرط عقدهم من هناك.. وقررت بعد انتظار طويل في الصالون أن تذهب إلى النوم.

بعد وقت قصير من وجودها في غرفتها سمعت حركة وكلاماً في الردهة فعلمت أن السهرة انتهت.. في هذا الوقت شعرت بأنها ما عادت قادرة على كبح امتعاضها لذا استعدت لمواجهة كاليوس حين يصعد.

تخلص من سيكاره ما إن دخل إلى الغرفة ثم ذهب ليجلس على الطرف الآخر من مقعد طاولة الزينة الطويل، حيث تجلس.. فبدوا في وضعية حميمة..

ـ كنت حكيمة لأنك لم تنتظري.. كان يمكن أن نتأخر أكثر من هذا.

ردت عبر المرآة:

ـ لا أدري لماذا كان عليّ أن أكون معكم.. فقد تجاهلوني كلياً

وكأنني غير موجودة.

ارتفع حاجباه:

ـ مستاءة؟ كنت هناك بصفتك زوجتي ومضيفتي.. فهل كنت تفضلين إبعادك إلى غرفتك وإرسال العشاء لك على صينية؟ ولكنني لم أرهم يتجاهلونك لأنك اجتذبت ما يكفي من اهتمام العيون، وهذا يصب في مصلحتي ويرضيك.. وشكراً لله لأن ذوقك رفيع فيما يتعلق بالملابس.

تجاهلت المديح:

ـ لا أتحدث عن النظرات الولهى بملكة جمال الكون.. بل أقصد أن أحداً لم ينظر إليّ على أنني شخص له رأي وإرادة.. على أي حال، ألم يكن لأي منهم زوجة أو صديقة كان يمكن أن تسليني خلال تجاهلهم إياي؟

ـ الزوجات والصديقات لم يكن مدعوات.. لم تكن الحفلة من هذا النوع.. كنت أنت موجودة كونك المضيفة.. لا أكثر ولا أقل.

بدأ يخلع سترته ووقف يفك ربطة عنقه وهذا ما زاد الوقود فوق نار غضب أدوينا:

ـ لكن، وبما أنني أعرف الكثير عما كنتم تناقشونه، كان عليك أن تدعني أنضم إليكم؟

ـ تتذرعين بخبرتك القصيرة في عمل والدك؟ أشك في أن تتمكني من المساهمة كثيراً بما له قيمة لنا.

ـ كان بالإمكان على الأقل طرح بعض الأسئلة.. وكان بالإمكان أن تجيبوا عنها.

ـ ولماذا تريدين أن نضيع الوقت على هاوية متحمسة لصناعة

الكريستال؟

كانت إجابته أمراً متوقعاً.. فإن كان يريد إخفاء أمر اقتباس وسرقة عمل تجاري سري اكتشفه والدها، فسيحاول التقليل من شأن أي خبرة لها ولوالدها؟

ـ ولهذا لم ترغب في التفكير بإعطائي وظيفة في المؤسسة.. لأنني مجرد هاوية متحمسة في نظرك؟

ـ هذا غير صحيح.. السبب هو كما قلت لك، زوجة رئيس مؤسسة رانسيمو لا تعمل موظفة أجيرة.. في أي وقت أو أي مكان.. اعتقدت أنني أوضحت لك هذا كل الوضوح.

ـ لقد أوضحته.. ويبدو لي كذلك أن لزوجة رئيس عائلة رانسيمو واجبات ولكن ليس لها حقوق.

كان واقفاً وراءها.. فقال مخاطباً صورتها في المرآة:

ـ لديك أفضليات وواجبات.

ـ أفضليات؟ مثل ماذا؟

ـ اختياري إيّاك زوجة لي.

شهقت أدوينا بسبب العجرفة والتعالي البادِيين في كلامه هذا ولم تعرف بما ترد.. للحظة طويلة نظرا بصمت عدائي إلى صورتهما المنعكسة في المرآة.. ثم هبطت يدا كاليوس اللتان كانتا على كتفيها إلى يديها الجاثمتين في حضنها.

قال مركزاً: «أفضليات.. تعالي إلى الفراش».

كيف يستطيع هذا؟ كيف يظن أن خلافاً حاداً كهذا قد ينتهي هكذا؟

قالت وكأنها تصيح ثائرة:

ـ لا!.. لا!

ـ لا؟ وهل لديك خيار؟

ـ نعم لدي.. سأستخدم السرير الآخر في غرفتك.

ـ كما تشائين.. لكن فيما بعد.. أما الآن فهل لي أن أذكرك بواجباتك؟ تعالي.. إذا لم تكوني راغبة أن تخلعي ملابسك، سأفعل هذا لك.

وقفت على مضض.. ولكنها لم تتحرك بعد هذا.

صاحت به: على الأقل احترم خصوصياتي.

ـ حسناً..

أخذ سترته وربطة عنقه عن السرير وتركها ودخل إلى غرفة ملابسه.. ظلت واقفة حيث كانت، ولم تكن قد فعلت شيئاً لخلع ملابسها حين عاد.. فتقدم ليقف في مواجهتها..

ـ ماذا تأملين أن تكسبي من هذا التصرف الطفولي؟

ـ لا يمكن أن تقدم على هذا وأنا وأنت في هذا المزاج.. هذا غير لائق.. حيواني! أنا أرفضك الليلة.. ولا يمكن حتى أن أتظاهر برغبتي أن تكون قربي.. أو تلمسني.. لا أستطيع!

ـ هل يمكن أن نرى؟

عرفت جواب السؤال الهادئ كأمر لا مفر منه.. ثم حملها إلى السرير.. أكان يمثّل الدور الذي حذرته أنها لن تتحمله أم لا، فسرعان ما تحول إلى الحبيب الخبير كما كان في الأوقات القليلة منذ زواجهما.. وعلى الرغم من روح الثورة المتأججة داخلها، أبدى جسدها الطاعة، ولو على مضض في البداية..

لم تكن بحاجة للتظاهر.. فهما عدوان كل منهما لديه أسبابه

www.elromancia.com

الوجيهة.. ولكن غريب وجود هذا التفاعل الكيميائي بينهما، كأن لديه سحراً عليها.. وحينَ تركها عرفت أنه أخذ معه انتصار المعرفة.. فكيف سيستغلها؟

«التصرف الطفولي» جملة علقت في ذهنها فألهبت ضغينتها..

عندما وصلت إلى ڤينيسيا أراها سيسو معامل شركة كريستوس على خليج جزيرة سان باولو وأخذها إلى صالات العرض الأنيقة التابعة للشركة في ساحة ماركو.. لكن كاليوس لم يعرض عليها شيئاً من هذا، ويجب عليها إذن أن تخترق أسوار الصناعة بطريقة أخرى.

كانت خبرتها في انكلترا في معرض صناعة والدها.. لذا وضعت لائحة بالصناعة ذاتها في ڤينيسيا وأخذت تزور كلاً منها بحثاً عن فرصة محتملة للعمل بائعة تجيد إضافة إلى الإيطالية الإنكليزية.. فلو قبلتها إحدى هذه المؤسسات لتمكنت من خلال تعاطيها مع العمال من معرفة شيء مهم.. ومتى التزمت يصبح الأمر واقعاً يجب أن يتقبله كاليوس.

انطلقت بمشروعها بثقة.. ولكنها اصطدمت بخيبات أمل وبالرفض. ثم أظهر أحد المدراء اهتماماً كافياً بمقابلتها، ولكنه أنهى المقابلة ما إن عرف اسمها.

كرر:

ـ رانسيمو؟ وهل أنت قريبة من عائلة رانسيمو؟ من بعيد ربما؟

لكن قبل أن تجد رداً مراوغاً، رأت أن لا فرصة لها معه وافترقا.

شعرت بالسخط من نفسها لأنها فكرت في الإقدام على هذا فلا جدوى من محاولة البحث عن عمل في مضمار الزجاج.. وعزاؤها الوحيد أن كاليوس لن يعرف أنها حاولت بطريقة غير لبقة أن تتحداه

وأشعرها هذا بالراحة حتى سألها يوماً ببرودة صخر هادئ وبشكل ينذر بالخطر:

ـ هل لك أن تفسري كيف أن أحد منافسينا، البيرتو راجينو، يظن أن إحداهن تقدمت بطلب وظيفة بائعة في المدينة وأعطت رقم هاتف البيت للرد؟ لقد رددت على المكالمة بنفسي وأكدت لهم أن هذا مستحيل، وسألتهم عن صحة الرقم وكان صحيحاً، لذا ربما...؟

راجينو..! أحد الذين انضموا إلى فرقة لا تتصلي بنا.. يا لها من غبية! كيف تركت لهم رقم الهاتف بكل ثقة بغض النظر عن اسمها! أحست أدوينا بانحسار الألوان من وجهها بسبب نظرة كاليوس الفولاذية.. أدركت أنه ألقى بسؤاله ليدفعها إلى إنكار لا جدوى منه أو اعتراف مخجل.

قالت بشجاعة زائفة:

ـ أعتقد أنك أدركت أنهم ليسوا على خطأ وأنهم يتحدثون عني.

ـ بالضبط.. فالوصف الذي وصفوه لطالبة الوظيفة ينطبق بوضوح عليك ولكنني لا أفهم لماذا لم تذكري لهم اسمك.

ـ لم يطلبوه.. بل اكتفوا برقم الهاتف فقط.

ـ وهل لي أن أسأل عن الجنون الذي دفعك للتفتيش عن عمل بائعة في محل، مع أنك تعرفين أنني منعتك عن العمل مهما كان نوعه؟

ـ لم آخذ بعين الاعتبار أن لك الحق في منعي.. ليس لدي ارتباطات منزلية ولا أولاد..

ـ في الوقت الحاضر..

ـ وأنا ماهرة. بيع الزجاج المشغول هو أفضل ما أستطيع

عمله.. ومع أن زوجاً إنكليزياً قد يطلب من زوجته عدم العمل ولكنه لن يحلم «بمنعها».

- وزوجة إيطالية لا تحلم أبداً بعدم إطاعة زوجها لأن طاعته لها أسباب وجيهة.

- أجل.. لأن زوجة رانسيمو تعلو على أي عمل..

- ولأنك مدينة ببعض الرفقة «المادرينغا»! وقد أضيف إلى هذا أن المرأة التي لا تحتاج إلى العمل في إيطاليا اليوم، لا تعمل من أجل صالح اللواتي يضطررن للعمل.

- لكنك لم تقل لي هذا.

- كنت على خطأ عندما اعتقدت أن لك عقلاً راجحاً.. على أي حال، كيف يمكن أن تقبلي بأية وظيفة دون إعلامي مسبقاً؟

- لم أفعل هذا.. والواضح أنني لن أستطيع.. ولو وجدت وظيفة لأخبرتك بالتأكيد.

أثارته بقولها هذا أكثر فأكثر.. وقد رأت هذا من وميض الغضب الأحمر في عينيه الذي برز قبل أن يمسك كتفيها بقبضة فولاذية.

- كنت ستخبرينني؟

هزها بسهولة وكأنها دمية من قماش.

صاحت: كاليوس.. لا تفعل هذا، أرجوك.. أنت تؤلمني!

- وأنا أريد أن أؤلمك.. إذا كانت هذه هي الطريقة الوحيدة لتفهمي أن عليك الطاعة.

هزها مجدداً ثم أبعدها عنه بقسوة، فتهاوت ثم استعادت توازنها.. قالت ساخرة لأن لا سلاح لها ضد جبروته سوى لسانها:

- أكرر.. كنت سأخبرك من قبيل المجاملة.. وإذا كان راجينو

ما يزال يريد..

ولم تضف لأنه قاطعها بحدة:

- لا يريد منك.. لقد فهموا مني بوضوح أن لا أحد هنا يريد وظيفتهم..

- ولنفترض أنني قررت تكذيب هذا؟

كانت كلمات متسرعة ملؤها التحدي.. ولكنها عرفت أنها تحتقر نفسها للجدال في أمر زائف.. فهي لم تفتش عن عمل لأنها ضجرة، بل على أمل واهٍ في تسهيل مهمة تجسسها عليه.. وبما أنها لا تستطيع الاعتراف بهذا الواقع، فلا يجب أن تغطيه بادعاء حقها في أن لا تطيعه، وهي لا تجرؤ على محاربته بأشياء زائفة.

هل يعني هذا أنها بدأت تحترمه كعدو؟ فاجأتها الفكرة..

وكأنه عرف أنها اعترفت بانتصاره.. فتساءل عن التحدي الملتهب وراء سؤالها، وسأل:

- إلى أي مدى تعرف مادرينغا بهذا المشروع؟ أم لعلك كنت خائفة أن تقنعك بأن تبلغيني أولاً.. لذا لم تقولي لها؟

- لا تعرف شيئاً عن الأمر، هل تظن أن من واجبك القول لها؟

هز رأسه:

- إذا كنت لا أستطيع انتزاع المزيد من الولاء منك أكثر مما أظهرته لي، فمن الأفضل أن لا أذيع هذا.

أدركت أدوينا أن عدم الولاء الذي ظنته مبرراً أصبح دمغة في قلب تمردها.. ولم تجد شيئاً ترد به عليه.

* * *

٥ ـ كل سلاح . . . مباح!

أشعرتها تلك الهزيمة على يدي كاليوس بإحباط شديد. كيف لها أن تبرهن أن وراء اختفاء أوراق أبيها ما هو مريب؟ يجب دفع شخص ما لتزويدها بالمعلومات التي تحتاج إليها. . لكن كيف؟

لا شيء تجنيه من محاولة استجواب فرانسيسكا أرملة أحد أفراد أسرة رانسيمو. . فهي قانعة بحياتها كل القناعة ولا ترغب أو تحب في معرفة ولو القليل عن عمل الرجال. لقد استدلت أدوينا من تلك المخابرة الهاتفية المشؤومة التي أجراها سيسو مع رومانو كالينو أن هناك «منجم ذهب» ورومانو كان موضع سر سيسو، ولولا إبعاده عن الساحة على يد كاليوس لكان من الممكن أن يساعدها. . ولكن الكذبة التي أطلقها كاليوس في البداية أصبحت حقيقة دامغة وهذا ما حوّله من حليف محتمل إلى عدو.

لم يبق إذن سوى روزينا بارنيار عشيقة سيسو التي شهدت جنازته والتي كانت تغار من أدوينا ولا شك أن هذه المرأة استنطقته وجعلته يعترف لها بسبب تنحيتها عن طريقه، ولا بد أنه أرضاها بوعود مفادها أن لا شيء في تحالفهما سيتغير والسبب «منجم الذهب».

ولكن هذا كله مجرد تكهنات. . فالعشيقات الإيطاليات قد ينحيهن الرجل عن شؤون الرجال كالزوجات. . إنما كيف السبيل

للوصول إلى روزينا؟

علمت أدوينا من دليل هاتف المدينة أن لروزينا شقة قرب جسر أكاديميا. . فراحت تتعمد مراقبة المبنى من مقعد تحت ظل شجرة زيتون وقد واظبت على هذا عدة صباحات دونما جدوى. . ثم أدركت فجأة أن موقفها في غاية السوء فماذا لو تعرفت إليها المرأة وتقدمت لمحادثتها؟ وكيف ستشرح لها سبب وجودها في تلك الساحة المنعزلة؟

لكن الحظ كان على موعد للمساعدة، فعندما كانت تأتي إلى المدينة، كان دينو يقلّها إلى پيازال روما، ثم كان يذهب في مهمة كلفته بها فرانسيسكا، أو ينتظرها في السيارة. في الصباح الذي تخلت فيه عن مراقبتها العديمة الجدوى، وعادت إلى موقف السيارات، وجدت سيارتهم محشورة بين الجدار وبين سيارة حمراء رياضية كان على سائق أدوينا تغيير إطارها. .

إلى جانب دينو وقفت امرأة شابة مرتدية بزّة حريرية سوداء، تنورتها قصيرة ومشدودة إلى جسمها الجميل، أما سترتها فمتراجعة من الأمام إلى الخلف لأن يدها كانت على خصرها. . فوق ذراع المرأة الآخر تدلت حقيبة كبيرة من جلد التمساح. . كان شعرها الأسود مربوطاً بعقدة كبيرة خلف رأس صغير أنيق وقسمات صغيرة دقيقة. . . رأتها تنحنّي نحو السائق وهي تصدر له عبارات التشجيع والشكر. .

وقف دينو الذي أنهى تركيب الإطار ونفض يديه، وانحنى رافضاً الأوراق النقدية التي عرضت عليه.

ـ غراتزيا. . تو سنيورا.

وارتفعت قامته بزيه الرسمي.

ـ لكنني أصرّ! كنت في غاية اللطف!

كان الصوت منخفضاً فيه شيء من الفظاظة ترافقه ابتسامة مغرية تحاول الإقناع.. لدى رؤيتها لأدوينا أضافت:

ـ سائقك سنيورا غيّر لي الإطار المعطوب، لكنه يرفض..

وصمتت المرأة، وبدت أسنانها الرائعة وهي تمعن النظر، ثم قالت وابتسامتها تتسع:

ـ لكنني أعرفك سنيورا.

قد تكون صديقة من أصدقاء العائلة.. لكنها كانت مذهلة الجمال، بحيث عرفت أدوينا أنهما لم يسبق أن التقتا.. أخذت اليد الممدودة بمصافحة رسمية:

ـ عفواً سنيورتي ولكنني على ما يبدو لا أعرفك.

ـ بالتأكيد لا تعرفينني.. لأنه لم يسبق أن التقينا.

ارتدت نحو دينو فوجدته جالساً وراء مقود سيارته فردت المال إلى حقيبتها الواسعة، ثم عادت لتنظر إلى أدوينا في اللحظة التي سجلت فيها حاستها السادسة أنها «روزينا بارنيار».. وقدمت المرأة نفسها:

ـ اسمي بارنيار.. روزينا بارنيار، وأنا أعرفك لأنني رأيتك مرة واحدة مع صديقي الطيب سيسو رانسيمو، ثم رأيتك مرة أخرى في جنازته المأساوية. ولكنك لم تريني.. ولم أستطع التطفل لأنك كنت حزينة.

كادت العينان السوداوان تذوبان بتعاطف حقيقي، لولا أن أدوينا تذكرت أن صاحبتهما وحسب قول سيسو، «كانت مجنونة بالغيرة»

منها.. لذا لا يمكن أن يكون تعاطفها صادقاً..

تمتمت أدوينا:

ـ شكراً لك.. حضر الجنازة عدد كبير من الناس..

ـ بالتأكيد.. ومن الطبيعي ألا تتلقي التعازي إلا من أقرب المقربين للعائلة.. لكنك لا تعرفين كم أردت أن أقدم لك عزائي.. وكم تمنيت لو أقول لك بعد سماعي بزواجك من كاليوس أن هذا بالضبط ما كان سيتمناه سيسو لك.. أن يحلّ أخاه محله..

اقشعرّ بدن أدوينا من هذا النفاق الذي سمعته.

سألت: «هل تعتقدين هذا؟ لكن هل عرفت سيسو إلى حد أن تقولي هذا؟»

في ابتسامة روزينا شفقة:

ـ آه! عرفته بشكل جيد جداً. كنا مقربين بما يسمح لي أن أتكلم نيابة عنه.. لكن بعد خطوبته لك، لم أعد أسمح له برؤيتي لأن ذلك أمر غير منصف.

(كاذبة! ليلة مقتله كان في طريقه إليك، يسابق الريح ليقول لك إنني هربت منه..).

قالت بصوت مرتفع ملؤه النفاق:

ـ هذا كرم أخلاق منك سنيورا.. لكنني دهشة لأنه لم يذكرك أمامي.. لم يذكرك قطّ.

برزت مرة أخرى البسمة المتسلطة:

ـ آه.. ربما خشي أن تغاري مني؟

(ويعرف أنك امرأة غيور بشكل لا يرحم).. وأخذت أدوينا تفكر، فحتى لو لم يعترف سيسو بغيرة روزينا لرومانو لاستطاعت هذا

الآن من خلال نظرات هذه المرأة وكلماتها.. ما زالت الغيرة تتآكلها.. رغم موت سيسو؟ ممّ تغار؟ عرفت أدوينا أن المرأة حاولت إطالة لقائهما لسبب ما، وبما أن هذا يناسب مقاصدها، فقد جارت الموقف.

قالت: لو عرفني إليك لربما أحسست بالغيرة لتقاربك الحميم معه.

راقبت ذهول روزينا لما يوحيه هذا المديح، ثم أردفت:

ـ لذا أنت على حق.. ولهذا السبب لم يدعك إلى الڤيلا بعد مجيئي.. لم يشأ أن أشعر بأنك تتفوقين عليّ.

تلاشت ابتسامة روزينا.. وأصبحت لهجتها متباعدة:

ـ لم أزر أبداً ڤيلا رانسيمو.. نعم لم يكن هناك ما يمنعني، ولكن سيسو فضل إبقاء صداقتنا.. شأناً خاصاً بنا.. ثم وقع في حبك..

قالت أدوينا بلهجة ذات مغزى:

ـ هكذا إذن.. فهمت.

ـ أنا مسرورة.. أملت أن تفهمي.. لكن الآن بعدما انتهى الأمر بشكل محزن فلماذا لا نتعارف بشكل أفضل؟.. ألا تظنين أن عليّ تقديم العزاء للسنيورا رانسيمو ولزوجك؟ إنها دلالة صداقة من جهتي.. ربما؟

ـ ربما.. لكن ما داما لا يعرفان شيئاً عن العلاقة الحميمة التي كانت بينك وبين سيسو...؟

وتركت السؤال معلقاً.

أعلنت روزينا: «ليس عندي ما أخفيه.. وليس عليك إلا تقديمي

على أنني كنت أعرف سيسو وأنك التقيتني صدفة..».

ظنت أدوينا أنها رأت خيط نور هنا. لسبب ما، تريد روزينا الدخول إلى الڤيلا. فعندما كانت عشيقته لم يكن مسموحاً لها على ما يبدو الدخول إلى الڤيلا إمّا لأنها غير معروفة وإما لأنها شخص غير مرحب فيه.. أما الآن فيبدو أنها وجدت طريقاً عبر أدوينا للدخول..

قالت أدوينا: أخشى أن السنيورا رانسيمو رغم الوقت الطويل الذي مرّ ما زالت في حداد على سيسو لذا لا تقابل غير أقرب الأصدقاء.

ـ لكنك ستقولين لها إنه سبق لنا أن التقينا؟ ويجب أن تأتي إلى شقتي.. قريباً، يجب أن نتذكر سيسو.

فتشت في حقيبتها وأخرجت بطاقة وقلماً ذهبياً:

ـ إنه آخر هدية تلقيتها من سيسو قبل أن يتركني بسببك.

وكتبت على البطاقة.

ـ هذا عنواني ورقم هاتفي.. سأدعوك ويجب أن تأتي.. فيما بعد سأقيم حفلة على شرفك أنت وكاليوس.. ففي ڤينيسا اليوم، هو رجل لا يمكن لأحد أن يتحمل عدم التعرف إليه.

(والغرض هو وضع نفسك في مسرح الأحداث حين ينفذ المشروع الذي سرقه سيسو من أبي؟) هذا ما طرحه عقل أدوينا المرتاب بعد فراقهما.. ولكنها استغربت أمر هذه المرأة فسيارة روزينا الفخمة وأناقتها الفريدة لا تدلان على أنها تفتقر إلى المال منذ موت سيسو. لكنها على الأرجح لا تكره أن تنعم بأشعة شمس المزيد من الشهرة من تقربها إلى كاليوس. ولأجل هذا، يجب أن تخترق معسكر رانسيمو.. ولتحصل على هذا يجب أن تمر بجثتي..

وذهلت أدوينا لتصميمها هذا الذي يضعها للمرة الأولى في معسكر كاليوس تحرسه وشؤونه من حرباء مثل روزينا بارنيار.

لم تكن أدوينا تريد ذكر لقائهما مع روزينا في القيلا، لكنها رأت وجوب هذا قبل أن تطلق المرأة دعوتها الموعودة. كررت فرانسيسكا الاسم بفراغ وهي تتمتم:

ـ أقام سيسو علاقات مع عدة نساء قبل أن يتعرّف إليك كارا..

الواضح أنها لم تتعرف إلى اسم روزينا على أنها إحدى أولئك النسوة. وكانت ردة فعل كاليوس غير جلية.. واستمع إلى شرح للقائهما، ولكنها لم تعرف إن كان سبق له أن سمع بهذا الاسم وهي تشك في أنه يعرف بأمرهما.

قال إنه سمع باسم السنيورا بارنيار.. وكيف تعرفت إلى أدوينا؟

ـ حضرت جنازة سيسو ورأتني هناك.. وهي تتساءل عما إذا كان بإمكانها زيارتنا لتقديم العزاء لمادرينغا.

ـ كان عليها ذلك حين كان الناس يقدمون التعازي بعد الدفن.. وأشك في أن تهتم مادرينغا بها الآن.. هل شجعتها على المجيء؟

ـ لا، أبداً، إذ قلت لها إن مادرينغا لا تستقبل غير القليل من المقربين.. لكنني وعدت أن أذكر لكما أمر تلاقينا وهي تريد مني أن أزورها في شقتها في كامبو سان ڤيدال.

ـ وسيسو الرابط بينكما؟ كم تدعي معرفتها بسيسو؟

ـ عرفته معرفة حميمة وقت ما..

ـ معرفة حميمة؟ هل يعني هذا أنك تشكين أن سيسو خدعك؟ وأنك تظنين أن بارنيار كانت منافستك؟ إذا كان هذا ما تتصورين، فأنت مخطئة كل الخطأ لأنه كان مولهاً بحبك.. لكن هل أحببته

أنت؟

لأنها أبقت سرّ خيانة سيسو طويلاً، لم تكن مستعدة بعد لإظهار ما تعرفه لكاليوس.

ـ هل تعتقد أنني أريد رؤيتها أكثر مما أحتاج إليه؟ على أي حال، قبل أن تتزوجني لم يكن من المسموح لي إقامة صداقات كثيرة لذا أكره الآن أن أرفض صداقتها.

كانت تشير بكلامها إلى رومانو، لكنه لم يعط دليلاً على أنه فهم إشارتها.. بل قال مواقفاً:

ـ لقد برهنت صحة وجهة نظرك.

وتركها تحس بالذنب مجدداً لاستخدامها المكر في أسلحتها ضده.. والواقع أنها لم تكن ترغب في صداقة روزينا ولكنها تريد استغلالها لإدانته وإدانة سيسو.. يُقال إن كل شيء مباح في الحب والحرب.. مع كاليوس رانسيمو تريد أن تكون حربها بيدين نظيفتين، ولكنها لمرتين متتاليتين لم تكن نظيفة اليدين.

كما اتضح، اختارت روزينا أن تسلك طريقاً مختصراً إلى داخل القيلا وإلى دائرة عائلة رانسيمو.. فبعد ظهر يوم أحد، كانت إحدى الخادمات ترشدها إلى حديقة القيلا حيث فرانسيسكا وأدوينا جالستين، وكاليوس يسبح في المسبح.

تقدمت على المرج الأخضر، ويداها ممدودتان إلى فرانسيسكا تطلبان منها عدم الوقوف، وشملت ابتسامتها أدوينا وهي تقول لفرانسيسكا:

ـ أنا روزينا بارنيار.. لا شك أن زوجة ابنك أخبرتك بأننا التقينا صدفة.. وأعرف أنك ستسامحيني لتطفلي عليك والحقيقة أنني أريد

تقديم العزاء لك سنيورا. نعم أعرف أنني تأخرت على هذا.

أزالت فرانسيسكا ببطء نظارتها، ومدت يدها:

ـ أجل.. ذكرت أدوينا هذا لنا سنيورا.. أكنت تعرفين سيسو معرفة وثيقة؟

ردت روزينا: «عرفته معرفة تجعلني أقدّر كثيراً صداقته».

ـ هكذا إذن؟ أنا سعيدة.. مع أنني أتساءل لماذا لم يصحبك لزيارتنا؟

كيف ستجيب عشيقة سيسو على هذا السؤال؟ لكن روزينا كانت على قدر الحمل.. وكانت ابتسامتها الواهية متواضعة بقدر كلماتها:

ـ آه.. ولكننا لم نكن على مستوى من الصداقة يجعلني أسمح له بأن يصحبني إليكم. وليس على أساس ما جاء بأدوينا إلى هنا، كحبيبة إنكليزية جميلة كان يريد أن يتزوجها.. كما أنني لست حرة.. فلدي زوج ما يزال على قيد الحياة.. فكيف لي إذن أن أسمح لسيسو بأكثر من الصداقة التي أعترف أنني كنت أبادله إياها، ولكنني لم أسمح له قط بأن يستغلها.

ـ ما زلت أعتقد أنه كان من واجبه تقديمك لنا على أنك صديقة عزيزة.

لكن قبل أن تستطيع روزينا الرد على هذا خرج كاليوس من المسبح وتقدم إليهن فبدا جسمه الرائع يلمع بالماء.

أحست أدوينا، كما تحس دائماً عندما تراه، بقشعريرة تجتاح جسمها.

قدمته فرانسيسكا إلى روزينا التي عرفت نفسها كما فعلت لفرانسيسكا.. ولم يطرح أي سؤال متطفل عن علاقتها بسيسو..

وهذا ما جعل أدوينا تتساءل مرة أخرى عما إذا كان يعرف المزيد عن تلك العلاقة. لقد تصرف بتهذيب ودماثة وكان على وشك الانسحاب ليرتدي ملابسه حين تنهدت روزينا بأسى:

ـ يا لك من محظوظ لامتلاكك هذا المسبح! ليس هناك مسبح في بلازوتشيلو حيث أسكن، وإذا أردت السباحة، يجب أن أطلب من الأصدقاء..

كان تلميحاً مباشراً، لم تستطع فرانسيسكا المضيفة الممتازة تجاهله:

ـ من المؤسف أنك لم تعرفي أن لدينا مسبحاً.. في المرة القادمة يجب أن تأتي مستعدة سنيورا..

ـ روزينا أرجوك!

هزت فرانسيسكا رأسها:

ـ شكراً لك.. ولماذا ليس الآن؟ أدوينا، لديك ثوب سباحة قد تقرضينه لـ.. روزينا؟

انكمشت روزينا للاقتراح:

ـ آه.. لا..! حسناً من الأفضل أن أستمتع.. وأنت أدوينا.. هل لي أن أدعوك أدوينا؟ هل تنضمين إلي؟

رفعت نظرها ببطء إلى وجه كاليوس:

ـ وأنت كذلك سنيور؟

قالت فرانسيسكا:

ـ سيفعلان بالتأكيد.. ستسبحون جميعاً، وسأطلب الشاي الإنكليزي الذي علمتنا أدوينا الاستمتاع به.. أدوينا.. يمكنك مساعدة صديقتنا بلا شك؟

اصطحبت أدوينا روزينا إلى غرفتها وهناك أرتها ثوبين الأول مؤلف من قطعة واحدة والثاني من قطعتين.. فاختارت روزينا القطعتين وما أسرع ما كانت ترتديه.. ثم نزعت الدبابيس عن شعرها الكثيف فانسدل كالغلالة فوق كتفيها.

سألتها أدوينا: «ألن تربطيه؟»

ـ لا.. أنا لا أربطه أبداً.. أحبه أن يطوف من خلفي وكأنني حورية بحر وهكذا كان سيسو يحب رؤيته..

ارتدت أدوينا ثوب السباحة المرفوض ثم ربطت شعرها. وتساءلت عما إذا كان هذا التصرف الشرير مقصوداً من جانب روزينا أم جاء عن غير قصد.. ولماذا، كائناً ما يكون قصدها، لم يسبب لها الألم.. ووجدت نفسها أكثر توتراً لرغبة كاليوس في إطاعة زوجة أبيه والانتظار ليسبح مرة أخرى معها ومع روزينا، وهو الذي لم يدعها حين كانت بمفردها.

في الماء، كانت روزينا أشبه بحورية.. لم يكن لوح الغطس عالياً، ولكنها غطست برشاقة وراحت تتلوى وتسبح تحت الماء لتخرج وتمسك أدوينا حول خصرها أو تحاول إغراق كاليوس الذي لم يكن يشجّعها..

تحدته أن يسابقها، واتهمته وهي ضاحكة بالغش عندما تغلب عليها بسهولة.. أما أدوينا فكانت تسبح على مهل وهذا ما جعل أعصابها تسترخي.. ثم صعدت روزينا من الماء وجلست على حافة المسبح وهي تحرّك ساقيها النحيلتين رامية التحديات لكاليوس الذي نفذ كل ما تحدته به بسهولة.

ثم نادت: يجب أن تقوم بغطسة مزدوجة.. مع زوجتك!

هزت أدوينا رأسها وقالت: «لم أغطس يوماً».

ـ يجب أن يكون هناك دائماً المرة الأولى!

ـ ليس بوجود من يتفرج عليّ..

وسبحت مبتعدة.

وقفت روزينا على قدميها واتجهت إلى لوح القفز:

ـ إذن كاليوس هل تقوم بقفزة معي؟

كانت تناديه كاليوس بدون تحفظ وأشارت بيدها إليه.

وقفت أمامه على حافة اللوح، وأذرعتهما الأربعة ممدودة إلى فوق وكأنها ذراعان فقط.. فجأة أنزلت روزينا ذراعيها، وشاهدت أدوينا شفتي كاليوس تشكلان سؤال «لماذا؟»

ارتدت لتواجهه قائلة:

ـ الأمر ليس مثيراً كما كان.. هكذا أفضل.. سأقفز إلى الخلف.. تعال..

جرّته إليها، وضمت جسمها إلى تكاوين جسده في وقفة مثيرة، لم ترغب أدوينا في النظر إليها.. ثم ارتفعت ذراعا كل واحد منهما وتشابكت الأصابع.. ثم قفزا كجسد واحد.. وخرجت روزينا من الماء ضاحكة، ويدها تحت شعرها المنسدل وقالت لكاليوس بدعوة صريحة..

ـ مرة أخرى؟

لكنه كان يخرج من البركة قائلاً:

ـ أنا لا أتحدى القدر أبداً.. قد لا تكون القفزة الثانية مثيرة.

عبست في وجهه ومدّت شفتيها: «جبان».

ظلت في البركة بمفردها.. في هذا الوقت استخدمت أدوينا

منشفتها ثم لفتها على ساقيها. . وكان كاليوس قد توجّه نحو المنزل عندما نادته روزينا بصوت ضعيف:

ـ أدوينا! كاليوس. . ساعداني!

رفعت ذراعها بجهد من تحت الماء.

عاد كاليوس بلمح البصر، وأسرع سابحاً نحوها حتى أدارها إلى ظهرها وجرّها إلى الجانب الضحل وهناك رفعها إلى العشب وانحنى فوقها سائلاً:

ـ ما الأمر؟

ـ ساقي اليمنى. . قرب الكاحل. . ألم شديد. . ربما تشنج. . لم أشعر بمثله قطّ.

مرر يده من ركبتها إلى كاحلها:

ـ لا أحس بأي توتر عضلي. . حاولي ثني قدمك عند الكاحل.

نظرت إليه متوسلة: «أنا. . لا. . أستطيع!»

ـ حاولي.

عندما حركت كاحلها بحذر شديد استجابت القدم، وتحركت بشكل طبيعي من جانب إلى آخر. فضحكت ضحكة انتصار:

ـ إنها أفضل حالاً. . لقد ذهب الألم!

ـ عظيم. . هذا أفضل.

ـ لكن. . فلنفترض أنك لم تكن هنا؟ لنفترض أنني كنت أسبح بمفردي؟

ـ إن كنت معرضة دائماً لنوبات التشنج فتجنبي السباحة بمفردك.

ـ قلت لك إنها المرة الأولى. . ولكن أعدك ألا أسبح بمفردي.

مدت يدها إلى يده ليساعدها على الوقوف، ثم أخذت تأرجح

يده وهما يتحركان نحو طاولة الشاي، وفي تلك اللحظة بالذات شكّت أدوينا في مسألة التشنج الذي أصابها فتشنج كهذا لا يمكن أن يصيب سبّاحة ماهرة مثلها بالذعر. . وأدركت أنّها تغلي غيرة من عشيقة سيسو، ولم يكن هذا بسبب هجره لها. . بل الغيرة من روزينا لتلاعبها السهل باهتمام كاليوس. فهو يلاعب المرأة كما لم يلاعبها هي. . وكلا الأمرين يؤلمها الآن. . إنها تشعر بالغيرة على كاليوس كما تشعر على حبيب. . وهذا ضعف لا يمكن أن تتحمله.

بعد أسبوعين من هذا، وأدوينا ترتدي أفضل ثيابها لحضور حفلة روزينا، أخذت تتساءل عن استعداد كاليوس لقبول الدعوة التي وجهتها قبل أن تغادر ذلك المساء.

كان قد انتقد تعارفها بها بخشونة. . لكنه سمح لها في غضون ساعتين أن تأسره بسحرها وتتلاعب به كما كانت مع سيسو. وإذا دام تعارفهما وأثمر، كم سيمر من وقت قبل أن يضيفها إلى لائحة خبرته مع النساء اللاتي ألمحت إليهن فرانسيسكا؟

بين بعد ظهر ذلك اليوم وهذه الليلة، لم تعد روزينا تلفت النظر إلى نفسها. . بهذا لم تقترب أدوينا من هدفها. . ولم تأمل شيئاً من حفلة هذه الليلة. . كانت ستحضرها بناء على أوامر كاليوس التي قاربت الأوامر الملكية. . وجعل من المسألة واجباً لا يتوقع منها أن تتجاهله. . ودعا نفسه في الليلة الفائتة إلى فراشها بالافتراض عينه. .

أوقف اللانش قرب جسر أكاديميا وسارا المسافة القصيرة إلى بلازو تشيلو. . كان الوقت غروباً وازدحام سير المركبات ما زال كثيفاً في القنال. كان الجو دافئاً والسماء صافية فيها القمر معلق مضفياً سحره على ڤينيسيا المدينة التي ألهمت الرسّامين والعشّاق.

للحظات، وقفت تستوعب الجمال. ووقف كاليوس إلى جانبها ليسأل: «ما الأمر؟»

وضعفت.. عليها أن تعبّر عن شيء من مشاعرها ولو لمرة واحدة:

ـ إنّ ما حولنا جميل رائع بحيث أحسد كل إنسان يستطيع رسمه أو نحته أو الكتابة عنه، وبهذا يتمكن من تذكره في كل مرة يريد.

ارتدت إليه مندفعة بتهور:

ـ هل تفهم؟ هل أحسست مرة بهذا؟

تابع سيره: «لست مضطراً للتذكر.. إنها مدينتي.. ما رأيك لو نترك الحفلة باكراً ونقوم برحلة في اللانش حول الخليج، ألن تستمتعي بهذا؟»

ذهلت لأنه دعاها فهي المرة الأولى التي يدعوها فيها.. فقالت بحماس: «سأحب هذا!»

لكنه أفسد اللحظة بقوله:

ـ أنا دهش لأن أحداً لم يصحبك بمثل هذه الرحلة.

ـ لم أخرج في جزيرتكم مع أحد غير سيسو.

وركزت على تأكيدها لأنها فهمت أنه يشير إلى المرات التي خرجت فيها مع رومانو الذي أجبره على التخلي عنها.

حين وصلا كانت الأنوار مشعة، والصوت ينبعث من شقة روزينا في الطابق الأول. المبنى في الواقع قصر يسكنه أحد النبلاء الإيطاليين وعائلته.. غرفة متسعة مرتفعة السقف ذات نوافذ وأبواب مرتفعة مزخرفة تطل على الساحة في الأسفل.. كانت الزهور منتشرة في كل زاوية، والنساء ينتقلن من مجموعة إلى أخرى أو يشكلن زوجاً مع

الرجال.. وقامت روزينا التي كانت ترتدي سروالاً قرمزياً أحمر وبلوزة مماثلة تتناسب مع لون بشرتها، وأعلنت على الملء أنها تقيم هذه الحفلة على شرف كاليوس رانسيمو وبالأخص على شرف السنيورا رانسيمو التي لم يتشرف سوى القليل من الناس في المدينة بلقائها، وهي واثقة أنهم سيحبونها.

تمتمت ببضع أسماء تعريف، ثم اختفت.. وسرعان ما انفصلت أدوينا عن كاليوس، ودارت من مجموعة إلى أخرى برفقة أناس لا تذكر إلا القليل من أسمائهم التي لم تعرفها سوى منذ وقت قصير.. وتحركت لتتعرف إلى المزيد.

ما بين الصالون الرئيسي وغرفة قريبة، كان هناك «بوفيه» يتحلق حوله المدعوون الذين يتغيرون دائماً.. وكان الناس حتى هذا الوقت يتوافدون.. عندما نظرت من فوق كتف الرجل القريب منها، كتمت أنفاسها لأنها رأت في الباب رجلاً كان يتحدث ويضحك مع رفيقين... إنه رومانو كالينو!

* * *

٦ ـ الخطوة الأولى الخاطئة

رومانو!

رومانو الذي أعجبت به، وأحست أنها قادرة على الوثوق به..

رومانو الذي يعرف سيسو أفضل من أي شخص آخر، والذي كان أملها الأول وقد يكون الآن أملها الأخير في كشف نفاق سيسو..

وكاليوس!

رومانو هو الشخص الوحيد الذي قد تفضي إليه بخيانة سيسو لها.

لكن رومانو الذي صدّق كذبة كاليوس التي خطط لها.. والذي تخلى عنها من تلقاء نفسه.. والذي لم يعطها فرصة لتشرح.. كيف سيستقبلها الآن؟

ما إن رأته حتى اندفعت إلى الأمام بتهور، ثم عدلت عن ذلك.. لكنها كانت قد أصبحت ضمن مرمى بصره.. كان يبتسم حين رفع نظره إليها ثم رأت شفتيه تشتدان.. ونظر إليها نظرة طويلة ثم تجاهلها كلياً وارتدّ مجدّداً إلى أصدقائه.

أحد هؤلاء الأصدقاء لحق بنظرته، وقبل أن تستطيع أدوينا الهرب، تقدم إليها الصديق الذي لم تتذكر اسمه. قال بحثها:

ـ يجب أن تقابلي كالينو من شركة برونو ماليستي. لقد عاد للتو

من نيويورك ومن أماكن عدة في الغرب.

تمتمت بضعف:

ـ أنا.. وزوجي.. كنا على وشك أن نغادر..

عندما أصبحت وجهاً لوجه مع رومانو لم يعد لديه خيار إلا الاعتراف بها، أخذ يدها وانحنى نحوها.. وقال ببرود رسمي وكأنه غريب عنها:

ـ شكراً كورداني، إنما سبق لنا أن التقينا من قبل.

لم تعرف كيف تشرح أمرها له، ولكن عينيها حاولتا التوسل إليه ليسمح لها بشرح ما فاته.. نظرت من فوق كتفها متوترة خشية أن يأتي كاليوس للبحث عنها قبل أن تكلم رومانو على حدة.. وكان الرجل الآخر قد اعتذر وتحرك مبتعداً. وسأل الرجل المسمى كورداني رومانو:

ـ لا ريب أن تعارفكما حدث قبل سفرك الأخير؟

ـ أجل.. وقبل زواج السنيورة.

ـ حسناً.. سأترككما لتجددا التعارف.

وتركهما ولحق بصديقه الآخر.

خطت أدوينا إلى الظل القاتم الذي ترميه فجوة النافذة، ووجهها إلى الداخل لتراقب وصول كاليوس.. وبعد لحظة تردد، وبعدما خشيت أن يبتعد عنها بدوره ارتد رومانو ليواجهها.

قالت: «لم أتوقع رؤيتك هنا.. أنا.. نحن.. لم نسمع بعودتك».

ـ ولماذا تسمعين بعودتي؟ وما الفرق لو سمعت؟ سأقول لك سنيورا رانسيمو! لو عرفت أنك ستكونين موجودة لما أتيت.. ولكني

لا أفهم كيف تعرفت إلى روزينا بارنيار.. فكيف؟

ـ التقيتها صدفة وهي من تعرّفت إليّ ثم دعت نفسها إلى القيلا، لكن أصغ إليّ رومانو.. أرجوك.

ووضعت يدها على ذراعه:

ـ يجب أن أتكلم إليك.. إنما ليس لدي الوقت.. يجب أن أشرح لك ما حدث.. وأنت كذلك.. كان عليك الحفاظ على موعدنا الأخير.. وكان عليك الاستماع إلى دفاعي..

ـ ولماذا.. ما دمت عرفت كل شيء..

ـ لكنك لم تسمع شيئاً! ما سمعته لم يكن صحيحاً!

ـ ليس صحيحاً؟ زواجك بكاليوس رانسيمو كذبة كبيرة؟

ـ لا.. لا.. نحن متزوجان.. لكنه كذب حين..

ابتلعت ريقها، وضغطت على ذراعه لأنها لمحت كاليوس في الغرفة..

قالت بأنفاس مقطوعة:

ـ إنه قادم للبحث عني.. سنغادر الآن. لكن يجب أن أراك، أين يمكننا أن نلتقي؟ في المدينة؟

ـ حسناً.. أين ومتى؟ أي مكان تعرفين؟ بهو «الدانيالي»؟

هزت رأسها نفياً:

ـ لا.. إنه مكان عام يقصده الجميع.. هناك حديقة عامة صغيرة قرب غريتي بالاس، وفيها مقاعد.. نلتقي هناك في الحادية عشرة غداً؟

ـ حسناً..

عرفت أنّ كاليوس رآها.. ولأنّها لا تستطيع إخفاء أنها كانت مع

رومانو، توقعت أن يتقدم نحوهما. لكنه بدل ذلك انتظر تقدمها إليه بصبر، وكأنه مستعد لمنحها الوقت اللازم لإنهاء عمل إجرامي.. إنها طريقته الماكرة لإظهار سخطه.

تمتم رومانو: «لن يتجاهلني!»

ـ لا.. أرجوك، لا تفتعل مشكلة.

تقدمت وانضمت إلى كاليوس.

سألت العاصفة السوداء التي على وجهه: «هل سنذهب الآن؟»

ـ أجل.. أحضري معطفك.

ـ ليس معي معطف.. لكن عليّ الاعتذار من روزينا.

ـ اعتذرت منها نيابة عني وعنك.

كانت قبضته تحت مرفقها شديدة القوة.. في الوقت الذي كان فيه يسوقها سوقاً تصاعد الخوف إلى نفسها ولكنها في الوقت ذاته شعرت بالسخط منه لأنه يعاملها وكأنها طفلة شريرة مزعجة! لكن، وهو يصعدها إلى اللانش، حاولت العودة إلى طبيعتها.

ـ لو عرفت أننا سنخرج إلى الخليج لحملت معي وشاحاً.

لم يرد حتى أدار المحرك، وخرج باللانش إلى وسط القنال.

ـ لن تحتاجي إلى وشاح.. لأننا لن نذهب سوى إلى المنزل.

سألت بلهجة ساخرة: «هكذا إذن.. لا معاملة خاصة.. وهل سأنال الخبز والماء للعشاء؟»

هز كتفيه:

ـ لا مجال لمعاملة الأطفال ولا للعقاب.. لقد وجدت نفسي غير راغب في القيام برحلة متعة وأنا في دور الزوج المطيع.. ولا أعتقد أنك ستستمتعين بهذه الرحلة لأن أفكارك الرومانسية ستكون في مكان

آخر. في وقت آخر ربما.. عندما نكون على وفاق نقوم برحلة كهذه.

ـ تعني حين أحسن التصرف؟

عندما لم يرد، تمددت في مقعدها وأحنت كتفيها وعزمت الرأي على عدم دفعها لقول كلمة أخرى لما تبقى من الرحلة.

ركبا السيارة ثم تابعا رحلة العودة إلى الڤيلا بصمت.. هناك قال: «انتظريني».

ثم ابتعد لإيقاف السيارة بعيداً.. ومع أنها كانت تود أن تتحداه بأن تذهب إلى غرفتها وتقفل الباب على نفسها وتجبره على النوم في غرفة الملابس إلا أنها انتظرت.

ما إن جاء لينضم إليها في الصالون حتى شرع يقول:

ـ حسناً.. هل اجتماع الشمل السعيد مع صديقك محض صدفة أم أمر مدبّر؟

ـ مدبر؟ لا، لم يكن مدبّراً.. فلم يحدث أن تمّ بيننا أي تواصل منذ غادر ڤينيسيا.. وقد تدبرت هذا جيداً.

هزّ رأسه موافقاً: وعلى نحو أوفى بالمراد.. لقد جعلت إنهاء العلاقة يبدو وكأنه جاء منه..

ـ لم يكن هناك علاقة!

ـ ولم يكن لدي النية في تركها لتصبح علاقة.. على أي حال.. هل أنت واثقة أن روزينا لم تلمح لك بأنها دعت كالينو للحفلة.. أو أنه سيكون هناك؟

ـ لا أظن أن روزينا تعرف بعلاقتنا.

ـ إذن هو لقاء صدفة.. والمبادرة جاءت منك؟

قالت كاذبة: «لا!»

ـ أوه.. هيا الآن.. لا أظنه رحّب بك في البداية.. وأعتقد أنك اضطررت إلى دفع دفّة التناغم من جديد..

أدركت أنه كان يراقبهما وقتاً أطول مما ظنت.

ـ أنا لا أخجل من إبداء سروري برؤيته. لقد كان صديقي!

ـ ولا شك أن لهذا اللقاء المنتزع انتزاعاً لذة اللقاء السرّي؟

ـ أظنك رأيت أن مقابلتنا لم تدم أكثر من دقائق.. إذ سرعان ما وقفت تنتظرني..

ـ بالضبط.. ولكن الوقت كان كافياً لتضربي معه موعداً يتم في مكان أقل علنية؟ أين.. ومتى؟

كان بإمكانها أن تكذب مجدداً.. لكنها عرفت أنها غير منيعة أمام منطقه.. فقالت تتحداه:

ـ لا يحق لك أن تسألني.

ـ لا يحق لي؟

دنا منها ونظرة قاتمة تهدّدها:

ـ يا عزيزتي.. يجب أن تفكري في عذر أفضل من هذا! لقد تدبرت موعداً غرامياً مع رجل يستهويك، ولك الجرأة في إنكار حقي بالسؤال عنه؟

أمسكها بكتفيها بقسوة: هيا.. المكان والزمان.. لو سمحت!

لم تستطع أن تقاوم التحدي الفارغ:

ـ أنا.. لن أسمح.

تركها:

ـ إذن! أمنعك من مغادرة المنزل بدون أن يكون معك رفيق..

ـ هذا أمر سخيف! لا تستطيع سجني!

قال بلهجة رقيقة خطيرة:

ـ آه.. أملت ألا تضطريني إلى هذا.. ماذا إذن؟ أنا منتظر!

استسلمت: حسناً.. ولكن لا يحق لك أن توحي بأن لقاء في مكان عام نهاراً هو أمر شائن..

ـ حديث بريء في وضح النهار.. هه؟ لكن لدى الفرنسيين قول مأثور: الخطوة الأولى هي المهمة.. فأية حديقة وأي صباح؟

ـ غداً.. في حديقة صغيرة قرب غريتي.. لا أعرف اسمها.

ـ بناء على اقتراحك أم اقتراحه؟

ـ اقتراحي.

ـ همم.. من المؤسف أن تبدي اللهفة ثم تتمنعين عن الحضور.

ـ أتحرّم عليّ الذهاب؟

لم يرد.. وأخذ يستدير في الغرفة الواسعة يطفىء الأنوار، ثم دنا من الباب. وبدل أن تبقى بمفردها في الظلام، لحقت به.. عند الباب وقف ليقول بلهجة ذات مغزى:

ـ أستهجن استخدام كلمة «التحريم» لذا سأفترض أنك كونك زوجة لي تدركين عواقب أخذ الخطوة الأولى نحو علاقة غرامية، تفهمين معنى هذا.. لذلك لن تذهبي!

ـ لكن رومانو يتوقع حضوري.

ـ لن ينتظر أكثر مما هو ضروري.. لكن إن أغرتك نفسك بالذهاب، فهذا يعني أنك بحاجة إلى إقناع لتفهمي من هو المالك الوحيد لحق الاتصال بك، والذي ينوي أن يبقى هكذا.. تعالي إلى الفراش.

في الصباح عندما ذكرته فرانسيسكا أن لديها موعداً مع طبيب العيون ذلك الصباح، قال كاليوس: أجل.. أعتقد أن من الواجب أن ترافقك أدوينا.. وإن شئت أحجز طاولة في دانيللي للغداء، وسأنضم إليكما فيما بعد، نحن الثلاثة فقط.

أضاف إلى أدوينا:

ـ لقد ذكرت لي أنك خططت للقيام بأمر ما هذا الصباح ثم عدلت عنه.. أليس كذلك؟

تساءلت عما إذا كان ترك رومانو ينتظر أم اتصل به من شركته ليقول له إنها لن تحضر.. لكن رومانو لم يحاول الاتصال بها بعد ذلك.. وكم كرهت أن تحاول مجدداً عقد لقاء معه، وفي هذه المرة ستجعله سرياً حقاً.. ما كان يجب أن تتاح الفرصة لكاليوس باتهامها بلقاء غرامي.. وبما أنها فشلت مع رومانو، افترضت أن عليها العودة إلى روزينا فأرسلت لها رسالة شكر على حفلتها ثم دعتها للغداء في المدينة متى شاءت.

اتصلت روزينا بها موافقة على الدعوة بحماس، أمر جميل أن تدعوها أدوينا.. فهما لم يتبادلا بعد الحديث عن سيسو.. أليس كذلك؟ لكن هل لها أن تقترح بدل الغداء، شرب القهوة في شقتها. ألا توافق أدوينا؟ وأضافت روزينا يوماً محدداً قبلته أدوينا، وبما أن روزينا متلهفة جداً للحديث عن سيسو فلن يصعب عليها إلقاء السؤال الموجه نحو ما تريد معرفته.

أخبرت فرانسيسكا بموعدها مع روزينا فتمتمت فرانسيسكا أن روزينا تدين بالضيافة للقيلا، لكنها رضيت حين قالت أدوينا لها إنها هي التي اقترحت اللقاء بمفردهما.. وكان على أدوينا أن تأخذ معها

بعض الزهور وهذا ما فعلته، وكانت تعيد تركيز الباقة على ذراعها وهي ترن جرس باب شقة روزينا، لينفتح الباب لها لكن ليس بيد روزينا بل بيد رومانو.

امتزجت الدهشة بالإحباط ثم صاحت صيحة دهشة «أوه!» وارتدت خطوة إلى الوراء وقالت:

- قالت لي روزينا إنها ستكون بمفردها ولم تقل لي.. لم أتوقع.

- لا.. لكن ادخلي.. ألن تدخلي؟

تنحى رومانو جانباً ثم أغلق الباب وأخذ الزهور منها.

- آسف ولكنها الطريقة الوحيدة التي تخولني رؤيتك.. روزينا غير موجودة.. هل فهمت؟

- لا!

- لكنك أردت رؤيتي لأمر ملح كما فهمت.. عندما لم تأت ذلك الصباح..

- منعني زوجي..

- هذا ما جعلني أصدقه حين اتصل بي في عملي وقال إنك لن تحضري.

- إذن لقد اتصل بك؟

- أجل، أفهمني أن لا جدوى من محاولة تحديد موعد آخر.. وقلقت عليك أدوينا.. ثم اقترحت روزينا دعوتك إلى هنا، واقترحت إعارتنا شقتها لمدة ساعة.. ولكنني مع ذلك لم أجرؤ على الاتصال بك خشية أن أسبب لك متاعب أخرى..

سألت أدوينا ببطء وحيرة:

- أتقول إن روزينا خططت لهذا؟ لتنفرد بي حين أصل؟

- أجل.. وكنت ممتناً لها.

- لم أعرف أنك على معرفة وثيقة بها..

- حسناً.. أعترف أنها أظهرت اهتماماً أكثر بي منذ عودتي هذه المرة، لكنني أعرفها منذ زمن عن طريق سيسو.

- عن طريق سيسو الذي كان عشيقها؟ وأنت تعرف أنها كانت عشيقته طوال فترة خطوبتي لسيسو؟

عرفت من الصدمة على وجهه أنها على حق.. وأن روزينا كاذبة.

سأل متنفساً بشدة: «تعرفين؟ كيف؟»

- سمعته يكلمك هاتفياً يوم مقتله.. وناداك بأسم رومانو فقط.. في تلك المكالمة كان يتفاخر أمامك بروزينا ويحدثك عني.. وإذا كنت تذكر ما قاله لك فقد تتصور ماذا فعل هذا بي؟

تذكر رومانو بوضوح كل ما أخبره به سيسو..

سألها: وماذا حدث عندما عرفت؟ أكنت ستتزوجين به رغم كل شيء؟

- لا، فبعدما سمعت تلك المكالمة.. عرفت أنني لن أستطيع، وخططت لترك القيلا تلك الليلة. كتبت له رسالة أخبره بهذا، لكنه استلم الرسالة ولم يحاول رؤيتي.. بل خرج ليحافظ على موعده مع روزينا. وفي تلك اللحظة ضبطني كاليوس وأجبرني على انتظار سيسو حتى يعود.. وهذا ما لم يفعله.

- لكن هل أخبرت كاليوس ما تعرفين؟

هزت رأسها:

- لا.. لأنه قرّر أنني أهرب من سيسو. وبعد موته، لم أستطع

إجبار نفسي على فضحه لكاليوس أو لزوجة أبيه التي كانت تعبده، ولا دليل لدي سوى ما سمعته.. وكنت مضطرة للحصول على المزيد من الأدلة.. وهنا.. كما أخشى كانت النقطة التي دخلت أنت فيها على المسرح.

ـ ما إن عرفتني حتى قررت استغلالي.. أهذا ما تقولين؟ كان بإمكانك توفير هذا عليّ!

ـ قبل أن أعرفك حاولت البحث عنك وكنت أريد استغلالك. لكن ما إن أصبحنا صديقين حتى قررت الانتظار حتى أتوسل إليك أن تساعدني.. ولكن، فجأة، لم يعد هناك وقت وعندما قال لك كاليوس ما قال، رفضت رؤيتي مرة أخرى.

ـ وماذا توقعت؟ فهو لم يكذب.. لأنك تزوجته.. أليس كذلك؟

ـ لكنه كان يكذب.. لم يكن قد طلب يدي يومذاك.. وعندما سألني، وافقت لسببين فقط.. لأن هذا يسعد السنيورا رانسيمو، ولأنني أردت أن أعرف إلى أي مدى هو متورط بخيانة سيسو.

ـ لا أجد في ذلك ما يدفعك للزواج برجل لا تحبينه.. أليس كذلك؟

ـ أظن أنني كنت أكرهه تقريباً يومذاك.

ـ أدوينا، كان يجب أن تنتظري رجوعي!

جرّ كرسياً إلى جانبها ومد يديه يمسك يديها، وانحنى فوقهما.

تنهدت:

ـ لم أستطع تحمل الانتظار.. لو رفضته لما استطعت البقاء في القيلا. وكنت بحاجة للبقاء لأنفّذ خطتي.. أنت صدقته وهجرتني،

إضافة إلى هذا..

رفع رأسه:

ـ.. إضافة إلى هذا أنت لم تحبيني أيضاً.. حسناً.. لا داعي لقول هذا.. كنت أعيش في سماء الأحلام في الوقت الذي ما كنت فيه تفكرين في غير طلب المساعدة مني.. أليس كذلك؟

ـ والصداقة.. نعم أردت صداقتك.. وما زلت، لكن ذلك لا يجعلني قادرة على طلب المساعدة منك.

جلس مستوياً يفتح كتفيه بفخر:

ـ ما زلت قادرة.. بإمكانك سؤالي.. مع أنني لا أعرف ماذا أقول.. فأنت زوجة كاليوس.

تنهدت: لا أعرف.. ولا أعرف إلا أن سيسو قال لك إنه سيتزوجني لأنني غنية وهذا ما لا أفهمه.. فمذكرات أبي وأوراقه لم تعد بحوزتي لأنه أخذها ثم استلم كاليوس كل أوراق سيسو بعد مقتله. وعندما سألته، أنكر وجودها.. وهذا ما جعلني أتساءل عما إذا كان مشاركاً بالمؤامرة، لكن كما قلت.. ليس لدي دليل.. لا شيء أبداً!

قال رومانو مفكراً:

ـ قضية ضعيفة.. ولأكون منصفاً أقول إنك لا تستطيعين الادعاء أن كاليوس وجد الأوراق.. قد يكون سيسو أتلفها بعدما وجدها عديمة القيمة..

ـ وهذا ما لا أستطيع معرفته.. أليس كذلك؟

ـ لا.. لكن ماذا برأيك اكتشف حتى طلب يدك للزواج؟

كررت: لا أدري.. ولكنني أفترض أنها وسيلة كان والدي يعمل

عليها.. أو أنه تخلى عنها لأنها غير عملية؟ فهو كان هكذا.. يفقد صبره من أية طريقة لا تتطور بسهولة، أو لا يملك المال اللازم لدعمها.

ـ ألم يكن يتباحث الأمر معك قبل التخلي عنها؟

ـ أبداً.. لكن هنا أرجو أن تتمكن من مساعدتي، فأنت ضليع بصناعة الكريستال.. أيمكن أن يكون سيسو قد عرف شيئاً اعتبره منجم ذهب حقيقي؟

ـ هذا ممكن.. فعمر صناعة الزجاج كما تعرفين قرون، والكريستال المصنوع في الفرن لا يصنّع بل يُشكل يدوياً.. ولا مجال كبير للتغيير في الطرق التقليدية هنا.. لكن في أقسام أخرى.. همّم.. أجل.. أعتقد لو أراد كاليوس مساعدة شركته بأسرار والدك، فأظنه نفذ ما يريد الآن.. ألم يذكر أمامك شيئاً عن اختراع أو تغيير في السياسة؟

ـ إنه لا يبحث شؤون عمله في المنزل أبداً.. حتى مع زوجة أبيه.

ـ إذن تريدين مني أن أبقى أذناً صاغية في دوائر المهنة.. في حال..؟

ـ هذا ما آمله.. فلا طريقة أخرى لأصل إلى غايتي.

ـ لو كان سيسو المرحوم مذنباً، لرغبت في التشهير به.. فهل تريدين الشيء عينه لكاليوس؟

تحركت بقلق..

ـ التشهير كلمة بشعة.. أتعتقد أن عليّ الإقدام على تنفيذها؟

قال رومانو:

ـ أعرف أنك ستلاحقين المسألة وسأساعدك في هذا.. أنت تريدين إنصاف أبيك.. ولكن ماذا سيعني هذا بالنسبة لزواجك إذا برهنت التهمة ضد كاليوس؟

ـ لا أدري!

كم مرة كررت هذه الجملة هذا المساء!

إنها تنظر الآن إلى مستقبل لم تفكر فيه من قبل..

ـ أظنه.. سيستمر.

ـ لكنه خدعك ليتزوجك!

ـ لا.. قلت لك.. قبلت به لأسبابي الخاصة.. ولم يكن يجبرني.. بعد أن اتخذت القرار.

ـ أيمكن أن...

وصمت.. فاضطرت للرد عليه:

ـ لا.. لا يمكن أن أطلب إبطاله..

ـ إذن.. لم يكن مجرد اتفاق بينكما؟ كان زواجاً؟

كرهت أن تقول له.. لكنها مدينة له بالحقيقة:

ـ أجل.. كان زواجاً.

غادرت المنزل قبل أن تصل روزينا، ولم تتركه يرافقها إلى محطة «أكاديميا».. ما إن افترق عنها حتى اقترح أن يطلب عون روزينا في إقراضهما شقتها متى عرف شيئاً.. لكنها لم تقبل.. لقد قبلت استخدام الشقة عن طريق الحيلة هذه المرة، ولقد استغلت الظرف.. ولكنها بعد الآن لن تتفق معه على موعد.. ولو كان لديه ما يقوله لها، يمكنه الكتابة لها.. فعلى الأقل لم يكن كاليوس يراقب بريدها، ولو أنه لن يرى فرقاً بين مراسلته لها وبين مقابلته.. لكنها

وضعت مشكلتها بين يدي رومانو.. ولا مجال للتراجع.

لكن هل هذا لإثبات ذنب سيسو؟ سيسو فقط؟ أجل..

للمرة الأولى تدرك أمراً كان مختبئاً في أعماق تفكيرها منذ بعض الوقت.. إنّها تريد لحملة انتقامها أن تتوقف عند سيسو.. ولا تريد أن تعرف أن كاليوس مذنب أيضاً.. لقد بدأت تجد من الصعب التصديق أنه مذنب.. شخصيته القوية كانت تدفعها للشك في لجوئه إلى وسائل دنيئة لكسب هدف.. فهو قادر على أخذ ما يريد في مواجهة عالمه.. لا تريد التفكير في أنه متورط مع سيسو في مؤامرة خادعة.

لكن.. لماذا؟

حبست أنفاسها مستغرقة، خائفة من الرد الصادق فهي لم تعد قادرة على تصور عالم لا يسيطر عليه كاليوس بوجوده الدائم في أفكارها، بجاذبية الرجل التي جذبتها إلى حقل قوته المغناطيسية وأبقتها هناك.. ولو أن هذا لم يعد إجبارياً الآن.

هل من الممكن إذن.. أن تكون قد وقعت في حبه؟ وإن كان هذا صحيحاً فكيف سينتهي هذا كله؟

كان دينو قد أوصلها إلى موقف السيارات، وبسبب عدم معرفتها بالمدة التي ستبقى فيها عند روزينا صرفته قائلة إنها ستستقل سيارة أجرة تعود بها إلى الڤيلا.. عندما وصلت وجدت أن كاليوس ما يزال في الخارج وأن فرانسيسكا أيضاً لم تعد من عند أصدقائها الذين دعوها للعشاء.. وهذا ما كانت أدوينا ممتنة له.. فهي لا تريد أن تكذب على أي منهما بشأن زيارتها المفترضة لروزينا.

حملت معها إلى السرير عذاب التفكير الذي حرمها من النوم..

كانت حائرة بدور روزينا في معضلة رومانو.. هل إقدامها على إعارة الشقة دليل صداقة حقيقية، أو أن روزينا تستمتع باللقاءات السرية الغامضة لمجرد الغموض؟ فكرة أن تكون ممتنة لها أشعرتها بالغضب.. ولكنها لن تدع هذا يتكرر مرة أخرى.. ولا تسمح أن يربطها شيء بروزينا إلا منافستهما التي كانت على سيسو.. وكلما قلّت اتصالاتهما في المستقبل كلما كان ذلك أفضل..

كان هذا القرار الوحيد الذي اتخذته في تلك الليلة التي انتهت بأن غطّت بنوم عميق، ولم تنزعج حين جاء كاليوس إلى الفراش.. وفي الصباح خرج قبل أن تستيقظ. وكانت حالتها الذهنية المتشوشة هي السبب في إحساسها بالإحباط لا غيابه..

كانت تريده هناك.. تريد أن ترى ماذا تفعل بها لمسته وصوته ونظرته التي لا تفهم منها أي شيء أبداً، فسيسو ما زال بالنسبة لها عدواً، أما كاليوس فلم يعد كذلك في قلبها وهي بحاجة إلى قربه الجسدي، ليقول لها ما إذا كانت مخيلتها تتلاعب بها وتدفعها للتفكير فيه على هذا النحو الحميم.. أم لعله سيبقى ذلك الوحش الظالم البارد، الذي تعرفه حتى الآن؟ ولأنها ظنت أنها ستراه قليلاً قبل أن يخرج شعرت بالإحباط عندما أعلمتها فرانسيسكا بأنه قصد المطار ليسافر لبضعة أيام في رحلة عمل، وأخبرتها أن بريطانيا جزء من جولته.

مسافر.. إلى إنكلترا.. يخبر فرانسيسكا خططه متجاهلاً حقها في إخبارها بتحركاته..

اضطرت أدوينا إلى إخفاء ألمها، ونجحت.. إذ لم تلحظ فرانسيسكا شيئاً، وأعلنت بالتالي أنها يجب أن تفعل شيئاً للسنيورا

بارنيار واقترحت إقامة حفلة عشاء صغيرة لها حين يعود كاليوس..
راجعت فرانسيسكا مفكرتها ثم حددت موعداً.
لكن أدوينا التي انزعجت من هذا لم تأت على ذكر امتعاضها.

* * *

٧ ـ ذكرى ليلة يتيمة

اعترفت فرانسيسكا بأن من الصعب إيجاد أحد من بين أصدقائها يملك الوقت الحرّ ليقابل روزينا.. وعندما أعادت التفتيش في مفكرتها بحثاً عن أسماء تذمرت لأدوينا:

ـ كل من أسأله ذاكرة اسم روزينا بارنيار، يبدو أنه يستقبل ضيوفاً، أو يشارك في حفلة أو سيذهب إلى المسرح.. أو مسافر في عطلة في اليوم المحدد.. أمر مزعج حقاً.. لقد خططت لاستقبال زوج ملائم، ورجلان أعزبان لإكمال عددنا.. لكن يبدو أن علي أن أرضي نفسي بالثلاثة الذين وجدتهم.. أعزب لم يتزوج بعد لأنه ممل، واثنان متزوجان، وليسا صغيران بما فيه الكفاية لك أو لضيفتنا.. وما كنت سأختار ليلة أسوأ من هذه!

كانت تتكلم ببراءة عن شيء كانت أدوينا تشك فيه.. لأنها تظن أن بعض الناس في دائرة معارف أسرة رانسيمو، كانوا يعرفون بعلاقة سيسو بروزينا، ولهذا يرفضون ملاقاتها تحت سقف منزل فرانسيسكا. مسألة كلاسيكية في أن لا يسمع أهل البيت بالفضائح المتعلقة بالبيت.. ومن الواضح أن فرانسيسكا لا تعرف أن المرأة كانت تكذب عندما ادّعت أن علاقتها بسيسو كانت مجرد صداقة بريئة.. ولكن أدوينا تشك في أن كاليوس يجهل حقيقة هذه المرأة..

www.elromancia.com

تساءلت أدوينا كذلك عدة مرات عن سبب عدم اهتمام روزينا بإنكار طبيعة علاقتها بسيسو مع أنها ادعت أن العلاقة انتهت بعد خطوبتها..

كانت روزينا آخر الوافدين إلى حفلة العشاء.. كانت مرتدية بزة بلون البحر ووشاحاً فضياً، وبسبب انشغال فرانسيسكا بضيوفها، طلبت من أدوينا إيصالها إلى غرفة النوم المخصصة للثياب.. وعندما كانت المرأة تلقي نظرة على زينتها وتبرجها أبدت الإعجاب بفستان أدوينا البسيط الطويل.

ـ ذوقك رفيع بالنسبة لعروس صغيرة.. وكأنه ثوب عذراء؟ يجب ألا أسأل صنع من، فلا بد أن كاليوس يهتم بأن تذهبي إلى أفضل بيوت الأزياء، أنت فتاة محظوظة.

ـ في الواقع جلبت هذا الفستان معي من انكلترا.

صدمها تحفّظ أدوينا.. فابتسمت المرأة:

ـ هيا الآن.. أعتقد أنك ما زلت منزعجة بسبب خدعتي الصغيرة التي قمت بها! فأنت لم تشكريني ولم تقدري الفكرة. أما رومانو المسكين الذي كان يائساً لرؤيتك فقد كان شاكراً لي.. خلتك ستكونين مسرورة مثله.. أردت أن أجمع شمل عاشقين قديمين.

ردت ساخطة: لم يكن رومانو كالينو قط عشيقاً لي.. إنه يعرف سيسو معرفة وثيقة، وهو مجرد صديق.

ـ آه يا عزيزتي.. كلنا نقول هذا عن مغامراتنا الصغيرة.. لقد أصبح هذا الكلام «كليشيه» تغطي الكثير.. كنتما قد التقيتما لوقت قصير في حفلتي، ولقد أصر رومانو على رؤيتك، لذا أحسست أن علي مساعدته، يا للولد المسكين!

تمتمت: على أي حال، كنت أفضل ألا تفعلي ما فعلت.. لقد خدعتني لأراه.. ولم يعجبني هذا.. جعلني أشعر.. أنني رخيصة!

ـ حتى ولو أن موعداً سابقاً فشل.. أو حرّم عليك ربما؟

ـ لم يكن مهماً.. شيء ما لم نتحدث عنه قبل سفره.. أشياء أردت سؤاله عنها.. عن سيسو.

ـ عني وعن سيسو؟

ـ ليس هذا.. بل أشياء أملت أن يتمكن رومانو من مساعدتي فيها.. أشياء خاصة.. ألديك مانع؟

بدت الراحة على وجه روزينا:

ـ إذن يجب أن أصدقك بأن اللقاء كان للعمل فقط، وأنك عدت إلى البيت وأنت قادرة على اختراع قصة مسلية عن كيف وجدت رومانو بدلاً مني؟

ـ لا.. لم أذكر هذا.

سألت روزينا بحدة.

ـ ولمَ لا؟

بدأت أدوينا تحس أنها عالقة في فخ:

ـ كما قلت، لأنني آمنت أن هذه خدعة رخيصة وأن كاليوس وزوجة أبيه قد يشعران بالشيء عينه.

سألت ساخرة: تحمينني من انتقادهما؟ يا لطيبة قلبك! أم لعلك وجدت صعوبة في شرح الأمر لكاليوس، سبب قضائك ساعات طوال مع رومانو لمناقشة هذا العمل الخاص.

ـ ساعات طوال؟ لم أبق معه هناك إلا ساعة بل أقل من ذلك.. ولا بد أنه أخبرك إنني رحلت قبل عودتك بوقت طويل..

ـ لم أعد إلا في منتصف الليل.. ولم يكن رومانو هناك بل ترك لي مذكرة شكر.. وباقة..

ـ زهور.. أنا التي حملتها إليك.

ـ حقاً؟ فكرة حلوة. عندما عدت إلى المنزل ألم تأتِ على ذكر الأمر؟

لو عرفت الغرض من وراء السؤال لكذبت:

ـ لا.. أذكر أن زوجة عمي كانت في الخارج، ولم أر كاليوس تلك الليلة.. تأخر كثيراً عن العودة.

ـ آه..

وصمتت تنظر بشكل مبالغ فيه إلى أصابعها المطلية بالأحمر:

ـ إذن.. لا أحد علم بأنك أمضيت أمسية طويلة مع رومانو كالينو.. أليس كذلك؟

فهمت أدوينا الفخ الذي نصبته لها هذه المرأة ولكنها حاولت المراوغة.

ـ ومن سيهتم بحديثي الطويل مع رومانو تلك الليلة؟

ـ حسناً.. كنت أفكر.. أنك أخفيت عنهم أمر لقائك به لأسباب وجيهة بلا شك..

وقفت روزينا تربت شعرها بحركة لا لزوم لها:

ـ لا عزيزتي.. أعتقد أننا أي أنا وأنت على مستوى واحد الآن.. هناك أشياء سمحت لك بمعرفتها عن علاقتي بسيسو، ولكنني أفضل ألا يعرفها أحد.. وأنا واثقة أنك لن تعترفي لأقاربك بأنك كنت في شقتي مع معجب لساعات.. لذا، لن يتحدث أي منا عن الآخر كما أعتقد.. فكلانا خاسر.

وأقفلت الفخ.. لكن أدوينا أخذت تضرب القضبان التي أقفلت حولها.. وقالت ساخرة:

ـ لا دليل؟ كل الخدم يعرفون أنني عدت إلى المنزل في الثامنة!

ـ هذا أكيد.. إذ من السهل أن ترشيهم ببعض المال.. ولكن كم من الإذلال لك القول: قولي للسنيور ماريون أو كارلوت أو روزا، أو كائناً من تكون إنني كنت في الفراش نائمة في الساعة التاسعة تلك الليلة. لا صغيرتي الإنكليزية.. أعتقد أن علينا معاً أن نكبح لجام لساننا.. ألا تظنين هذا؟

لم تردّ أدوينا وعندما كانت روزينا تتوجه إلى الباب نظرت إلى حرف R المحفور على السرير:

ـ يا لها من عائلة متفاخرة «رانسيمو»! إنها من أفضل العائلات وأنبلها في إيطاليا.. ومن المؤسف جداً تلطيخ اسمها بأخبار وشائعات وتشهير، ألا توافقينني الرأي؟

وكان هناك ابتسامة سرية على شفتيها حين أخذتها أدوينا إلى الصالون لتقدمها فرانسيسكا.

منذ أيام بعد عودته من سفره قالت أدوينا لكاليوس:

ـ كان يجب أن تعرف أنني سأكون مهتمة بوجهتك.

قال: في لندن بالتأكيد.. وفي موطنك «الميدلاند» وفي «هال» في الشمال.. كانت رحلة عمل ولكنني لم أستطع أن أصحبك معي، كما نصحتني مادرينغا ألا آتي على ذكر سفري إلى انكلترا، لأن ذلك سيجعلك تحنين إلى موطنك.

تمنت أدوينا لو أنه من أبدى هذا الاهتمام لا زوجة أبيه فرانسيسكا.. لكنه على الأقل ذكر لها هذا.

قالت: فهمت.. لكنني لم أعرف أنك مسافر حتى أخبرتني مادرينغا.. والواقع أنني لم أعد أحن كثيراً لإنكلترا.

نظر إليها نظرة ممعنة:

- وهل وجدت العزاء هنا؟

- عن انكلترا.. أجل..

- والأصدقاء الذين كانوا هناك؟

- ليس لي في انكلترا غير والدي وهو قد مات.

هز رأسه متقبلاً الرد لكنها المرة الأولى التي يسألها فيها أسئلة شخصية. بدت أسئلته تُظهر وكأنه يعي أن لها مشاعر وردات فعل.. ولهذا السبب كان هذا نوعاً من التقدم في علاقتهما.

الليلة، على ضوء مشاعرها وتقويمها الجديد له تمكنت من مراقبته كما تريد.. إنه وسيم، متمدن ومضيف لبق.. في هذه الليلة كانت روزينا التي تقام الحفلة على شرفها إلى يمين كاليوس والسنيورا كوللي إلى يساره.. ومع أن الحديث حول الطاولة المستديرة كان عاماً، إلا أن الغيرة التي أخذت أدوينا تعترف بها الآن لنفسها جعلتها تسخط من روزينا التي نجحت في جذب اهتمام كاليوس إليها بعيداً عن الجميع.

ترك الجميع مائدة الطعام وجلسوا يرتشفون القهوة في الصالون.. وعندما ذُكر أمر إقامة كارنڤال مسائي في «بادوا» تلك الليلة قالت روزينا بحماس:

- في بياتزا دل سانتو.. أجل.. آه! ألا يمكننا الذهاب إلى هناك؟ أنا أستمتع بالكرنفال كثيراً.. ألا تتمتعون به؟

هزّ السنيور كوللي وزوجته رأسيهما نفياً:

- إنه كرنفال سوقي، ويستمر إلى وقت متأخر.

ابتسمت فرانسيسكا:

- ولا أستسيغه أنا أيضاً.. لكن لماذا لا تذهبون أنتم الشبان؟

ارتدت روزينا إلى كاليوس وقالت بوجه مشرق ملؤه التوسل: قل نعم..

وافق وهذا ما أدهش أدوينا وأغاظها:

- ولمَ لا؟

وكانت تعرف تماماً ماذا سيكون رده لو كانت هي من طلبت ذلك.

يبدو أن روزينا اعتبرت موافقتها وموافقة شريكها من المسلمات. ولأن الشاب الذي كان رفيقها ظاهرياً تلك الليلة حضر على درّاجة لا في سيّارة فقد اضطرت روزينا على مضض لقبول قرار كاليوس بانتقال الجميع في سيارته. ثم جلست بدون أن تبدي اعتباراً لأدوينا إلى جانب كاليوس، أما أدوينا فصعدت مع الشاب رميريو في المقعد الخلفي.

في پادوا، لم يكن أحد يلاحظ سانت أنطوني إلا عبر منصات جانبية تبيع الصور المقدسة والشموع والتذكارات المختلفة الأنواع.. أما ما تبقى، فقد أقيم ميدان الاحتفال الكبير في أرض واسعة تستخدم عادة كسوق أسبوعيّة وموسمية مضاءة ببهرجة ومزينة بحبال الزينة، وتضج بأصوات المحتفلين.

قاد كاليوس السيارة ببطء حول مكان الاحتفال.. ثم ترجلوا من السيارة وتقدّموا سيراً على الأقدام.. ثم انقسموا بشكل حتمي وعن سابق تصميم إلى زوجين.. كاليوس وروزينا اللذان ابتعدا متأبطي

الأذرع. تساءلت أدوينا وهي تراقبهما وتحاول الاهتمام برامیریو في الوقت عينه، عن سبب تقبل كاليوس بكل إرادته أن تأمره روزينا.. ماذا تأمل روزينا من تحرشاتها الوقحة؟.. إنه متزوج..

تجولت ورامیرو في المكان وفي هذه الأثناء ربح دمية هي عبارة عن تمساح مزخرف أخضر اللون قدّمه لها، أما هي فاشترت أقلّ المعروضات بهرجة.. طقم من المناديل المشغولة يدوياً لطاولة الطعام، ثم شربا المرطبات وهما واقفان قرب منصة البيع.

جعلت رامیرو يعود إلى السيارة قبل الزوجين الآخرين.. وكان كاليوس قد أعطاه مفتاحاً ليتمكنا من الصعود إليها، وجلسا ينتظران لبضع دقائق.. ثم قال روميرو إنه سيأخذ التمساح في جولة بخيطه المطاطي ليجرب حركاته ودورانه.

أما أدوينا فظلت في مكانها تحدق إلى الطريق المظلمة أمامها ولكن هذه الطريق كانت تُضاء بين الحين والآخر.. تضيئها الألعاب النارية.

أحد هذه الأسهم النارية، وقد لحق به واحد آخر، التقط بنوره لوحة رائعة لكاليوس وروزينا. كانا يبعدان عشرين ياردا أو يزيد عن السيارة.. يقفان متعانقين. كان جسد روزينا يضغط على جسده، ورأسها متراجع إلى الوراء في استسلام كامل، لكن أدوينا راقبتهما بعدم تصديق وألم..

روزينا وكاليوس.. عشيقان..؟ منذ متى؟ أمنذ الليلة الأولى؟ أم منذ أسبوع؟ أو منذ متى؟ آه! ما أشدّ ما كانت عمياء لافتراضها أن هدف روزينا كان أن تُقبل في دائرة العائلة، في الوقت الذي كان هدفها فيه هو كاليوس نفسه.. ضاع منها سيسو.. فقررت أن تبحث

عن شخص آخر يحميها.. وإذا كان المثال هو ما رأته هذه الليلة، فقد نجحت..

عادت الظلمة مجدداً، وعاد روميرو.. أما الآخران اللذان قد افترقا الآن، فقد وصلا إلى البابين المتقابلين من السيارة..

تجمعوا في الصالون لشرب القهوة. وكان الزوجان قد غادرا القيلا، وذهبت فرانسيسكا إلى النوم، وابتعد روميرو مع دراجته أمّا كاليوس فأوصل روزينا إلى سيارتها، ثم وجدت أدوينا نفسها مضطرة إلى الاقتراح بأن يقلّها كاليوس إلى شقتها.. لكن روزينا التي كانت واثقة من انتصارها هذا المساء رفضت وقالت إن هناك شخصاً ينتظرها في المونوسكافو في مرسى «روما» وإنه سيقلّها إلى المنزل مقابل بضع ليرات أخرى. في أعذب أمسية عرفتها أكدت على زيف كلامها بقبلة زائفة على خد أدوينا، لقد تعلمت درسها الخياني من سيسو وها هي الآن تنفذه على زوجة كاليوس.

عاد كاليوس بعدما أوصل روزينا إلى السيارة.. فوقفت أدوينا وراحت تتثاءب مع أن الواقع أنها متوترة توتراً سيحرمها من النوم..

قال كاليوس: متعبة؟ يا للأسف.. فكرت في الاحتفال بهذه الليلة على طريقتنا.

نظرت إليه وقلبها يخفق:

ـ ليلة.. لكنني اعتقدت أننا فعلنا هذا؟

ـ إنها مجرد صحبة لأربعة سببها الواجب.. كنت أفكر في رحلة في الخليج لم نقم بها حتى الآن.. فما رأيك؟

من بين ذراعي روزينا يأتي إليها مباشرة! عرفت أن عليها الرفض ولعب دور سليطة اللسان.. لكن الفتات أفضل من لا خبز..

تنحنحت بتوتر تقول:

ـ الوقت متأخر جداً.

ـ وهذا أفضل ليكون البحر لنا وحدنا.. أيمكنك الذهاب كما أنت؟

ساعدها في ارتداء المعطف القصير الكمين، وانتظر حتى ربطت منديلاً حول رأسها.

خلال الرحلة إلى رصيف «روما» تساءلت عما دفعه إلى اقتراح هذه الرحلة، ولم تستطع سوى الافتراض أن ضميره يعذبه لأنه أهملها واهتم بروزينا.. ولكن لوم النفس أمر بعيد وغريب عن كاليوس وعجرفته، وتشك في هذا.. كانت تتوق إلى الألفة بينهما لتتمكن من سؤاله بسهولة وبشكل طبيعي، عن سبب رغبته في إطالة الأمسية حتى الفجر.. ومعها فهو لا يبدو بحاجة إلى رفقة أحد.

ترك اللانش الرصيف، وخرجا إلى مياه الغراندكانال التي كانت تتهادى بهدوء كبير.. على كلا الجانبين، كانت المباني القديمة الأسطورية ترتفع منعكسة إزاء السماء.. وبدت أبراج «سانت ماركو» صاعدة إلى السماء. في هذه الظلمة الحالكة راح كاليوس يشير إلى معالم المدينة، وكأنه يرشدها في رحلة سياحية.. لكن لماذا اختار منتصف الليل ما دامت الرحلة مجرد سياحية؟

تجاوزا النقطة الجنوبية الشرقية من الأرض الرئيسية الآن، وخرجا إلى الخليج.. كان «الليدو» الشهير جنوباً، لكن كاليوس دار حول أرخبيل الجزر الصغيرة، التي هي أصغر من أن يُطلق عليها اسم، مجرد كتل سوداء. تساءلت أدوينا كم مرة أبحر في هذه الممرات ببراعة. لكنها تذكر ادعاءه الواثق أنّ ڤينيسيا «مدينته». حينما أطفأ

المحرك بعد قليل تاركاً اللانش متهادياً على سطح الماء كبس على زر حوّل مقعديهما إلى متكئين. وبعدئذ وضع ذراعه بلا اكتراث على ظهر مقعد أدوينا.

قال: منذ بعض الوقت، حاولت الغور في رومانسية ڤينيسيا.. وخلتني مغروراً عندما قلت لك إنني لا أحتاج لتأملها لأنني أمتلكها كما يمتلكها معظم أهل ڤينيسيا بحق مولدهم.. وقد تعلمنا عبر القرون أن نعيش مع كل هذا.

قالت: «لم أعتقد أنك مغرور.. بل حسدتك».

ـ هذا لأنك لا تشعرين بأنك بت تملكين هذه المدينة؟

ـ ليس عندي هذا الشعور لأنني لم أحب شيئاً فيها أو إنساناً حباً عميقاً يجعلني أشعر أنه لي.

ـ ألم تحبي أحداً قبل سيسو أو بعده؟ سيسو الذي لم تحبيه كما اتضح لي.

ـ أحببت مرة.

ـ أوظننت أنك أحببت ثم وجدت أن هذا يتطلب منك الكثير.. لكنك لم تجيبي عن سؤالي.. قبله أو بعده؟

أرادت أن تنكر عليه حقه بسؤالها ولكنها ردت:

ـ قبل سيسو لم يكن هناك أحد.. ومنذ وفاته.. أنا زوجتك.. أليس كذلك؟

صحح لها بجفاء: «لم تكوني زوجتي طوال الوقت.. فثمة فجوة».

نفد صبرها.. وقالت بحدة:

ـ تعني حين كنت أقابل رومانو كالينو؟ قد لا تصدق ما سأقول

ولكن الواقع أن رومانو لم يكن يعني لي شيئاً.. إنه مجرد صديق لسيسو أعجبت به.. ربما ظننت أن عليك الزواج بي للفصل بيننا.. لكنك كنت مخطئاً كل الخطأ! ولم يكن هناك داعٍ لمنعنا من اللقاء مجدداً أو منعي من رؤيته حين عاد من السفر.

ضحك كاليوس ضحكة قصيرة:

- يا فتاتي العزيزة.. لقد تزوجتك لأسباب مختلفة كلياً عن إبعادك عن ذلك الشاب، الذي كان بإمكاني التخلص منه بطرق أخرى أسهل من الطريقة التي اعتمدتها.

ابتعد عنها في مقعده لينظر إليها متفرساً:

- هل تعتقدين حقاً إنني كنت بحاجة لاستخدام سلاح الزواج لفك الارتباط بينك وبينه؟

تمتمت: «هذا ما جعلتني أعتقده».

- هه! لأن هذا يتوافق مع أسبابي الحقيقية للزواج.

هزت رأسها: لتتأكد أنني أكفّر عما فعلته مع سيسو.. ولتواسي مادرينغا بإنجاب الأحفاد.. ولكن دافعك للزواج لم يكن قطّ ما يجب أن يكون أساساً للزواج.

- وما هي هذه الأشياء التي هي أساس للزواج؟

- تعرف الإجابة بلا ريب.. الحب، الاحترام، الرفقة.. أن يكون الشخص الآخر الشخص الوحيد الذي يريد أن تعيش معه ومن أجله. الشخص الوحيد!

رد بمنطق صرف:

- قلت إنك تزوجتني لأسباب خاصة بك.. وأنا لم أحملك غصباً إلى المذبح.. والآن أتدعين أنَّ دوافعك لم تكن أقل اهتماماً أو

أكثر رومانسية من أسبابي؟

تذكرت انتقامها وهزت رأسها: «لا».

- إذن هل يحق لأي منا أن يشعر بأن كلانا تعمد أن يغش الآخر من الناحية الرومانسية.

لزمها الشجاعة لترد:

- أنا.. أعتقد.. لا، لكنك غششتني في كل شيء آخر.. فأنا لا أعرفك، لا أعرف إلا اسمك وسقف بيتك و.. وفراشك..

ظهر الذعر في صوتها وهي تضيف:

- لا أعرف شيئاً عنك! فأنا بالنسبة لك قد لا أكون موجودة، أو في أي مكان أنت فيه، إلا إذا اخترت أن تلاحظني.. لماذا؟ أنا لم أعرف ذلك البتة!

- أحياناً، لا بد أنك عرفت.. وعرفت لماذا.

صاحت غاضبة: «من أجل ذاك.. أجل.. لكن من أجله فقط».

صمت كاليوس وكأنها أعطته شيئاً يفكر فيه.. ثم ردد:

- ذاك؟ وذاك ما لا تعتبرينه مهماً في الزواج المثالي؟

- بل أعتبره مهماً.. إنه الزواج بحد ذاته.

- بالضبط.. ولكن لو تزوجتك وهجرت فراشك لكنت عندئذ شخصاً غشّاشاً.

- كان زواجاً بلا حب.

- بل كان زواجاً في شروط متساوية لم يفصح عنها أي منا.. وقد احترمت هذا الزواج حتى الآن، بحيث لم أضطر يوماً إلى إرغامك للحصول على حقوقي الزوجية.. كما احترمته إذا استطعت تصديقك بالنسبة لكالينو.

- تستطيع.

- وأنا مسرور.

تأثرت لهذا الاعتراف البسيط الذي لم تسمع بمثله منه.. وابتهج قلبها. لقد تكلما.. وأصغى كاليوس إليها، وبدا مهتماً بأنها تقبلت الموقف بينهما.. لم يتجاهلها ولم يصرفها عنه، لقد دعاها لمشاركته في رؤية وجه للمدينة يحبه، وهذا إشارة إلى أن هناك أملاً لمستقبل لا مهرب منه! إنها المرة الأولى التي يتواصلان فيها.. وسيكون هناك مرات أخرى. يجب أن يكون..! عمّ التفاؤل نفسها وشعرت أنها تريد أن تنسى معانقته لروزينا.. قد تتذكر وتشك فيه مجدداً.. أما الليلة فستنسى كل شيء.. كل شيء.

ضغط كاليوس على كتفيها بخفة، وسحب ذراعه من خلفها.. ثم سوّى مقعده ليجلس وأدار المحرك:

- آن أن نعود.

قرأت وعداً في كلامه عناه أم لم يعنه، وعد بليلة جديدة من نوعها معه، وهي لم تنته بعد.

ولم تنته.. فللمرة الأولى لم يتركها كاليوس.. بل نام في فراش الزوجية معها.. استلقت قربه راضية غير راغبة في النوم وشعرت بأنها تكره أن يتسلل الليل بعيداً إلى الذكرى.

كان قد تعامل معها بلطف ورقة كما في ليلتهما الأولى التي كانت تخشاها، ولقد كرهت نفسها وقتها واحتقرت جسمها لخيانته لها على يديه.. أما هذه المرة فقد كان شوقها إليه حتمياً كمد البحر المرتفع الذي يجذبها إلى شطه المتكسر..

الآن.. هناك هدوء وسلام.. ولم يكن في هذا الهدوء بؤس،

وكراهية للنفس.. بل ما يقارب الثقة بالنفس.

من الآن وصاعداً.. سيكون كل شيء أسهل وأيسر. بعد كل هذا، لا يمكن إلا أن يكون من السهولة أكثر الوصول إلى كاليوس في الكلام، في الأسئلة، في الردود دونما تحفظ.. حتى في الخطط التي سيضعانها معاً وينفذانها.

كانت هذه إحدى الأفكار التي حملتها أدوينا معها إلى غياهب النوم أخيراً.. أما الفكرة الأخرى، فقد دعت الله إن كانت ستحمل طفلاً لكاليوس أن يكون هذا الحمل بفعل هذه الليلة بالذات.

* * *

٨ ـ نيران الشك

وأصبحت حياتهما أسهل.. ففي أحد الأيام دعاها كاليوس لتكون مضيفة لجماعة من التجّار الأجانب.. أولاً في جولة على الجزيرة ثم كريستوس والمصنع ثم للغداء في معارض المدينة.. وبدا، على عكس المرة الأولى يجاهد ليبرز دورها.. ولأنه ترك مهمة إرشاد المشترين لها، بدا وكأنه يعترف للمرة الأولى أنها تعرف ما فيه الكفاية عن صناعة الزجاج.. وفي خطبة غير رسمية بعد الغداء قال لمستمعيه إن كريستوس محظوظة لأنه اختارها زوجة له.

عندما زارت مغنية أوبرا عالمية التياترو فيناس لحفلة وحيدة، شكل مجموعة صغيرة ليس من بينها روزينا، وتوجهوا لتناول العشاء أولاً في «الغريني بالاس»، ثم للذهاب بعد الحفلة إلى «فلويان» للعشاء.. ودعا أدوينا للسفر معه جواً إلى روما عندما كان لديه عمل هناك ثم تركها تتفرج على واجهات المحال في «ڤينيتو» و«كاندوتي» وطلب منها أن تشتري شيئاً لنفسها، تعتقد أنه سيعجبه.. وأن تقيد الحساب عليه.. بعد مقابلته فيما بعد، أخبرته أنها قيدت في حسابه مبلغاً لا بأس به ثمناً لقميص حريري فأصر عندئذ على شراء سترة تماثله.. وفي طريق العودة إلى المطار قال لها: «يجب أن نزور روما التاريخية والدينية في وقت آخر».

أطلق جملته وكأن هذا وعد سيفيه في وقت ما..

كان يعود بين الحين والآخر إلى المنزل باكراً من المدينة يدعوها للسباحة.. ولم يُذكر اسم روزينا أو رومانو بينهما في هذه الأيام.. وكادت تنسى المهمة التي كلفت بها رومانو، وقالت لنفسها إن بإمكانها بل يجب أن تصدق أن علاقة كاليوس مع روزينا بدأت وانتهت تلك الليلة في پادوا.

ثم تشتت الوهم فهو على ما يبدو لم يسامحها إذ وصل في إحدى الأمسيات فجأة فقبّل فرانسيسكا واعتذر لها على تأخره ولكنه لم يوجه خطابه لأدوينا طوال وجبة العشاء، ثم ترك المائدة قبل تقديم القهوة. وعندما كان خارجاً قال:

ـ أود أن أراك بعد انتهائك من تناول وجبتك.. أرجوك! سأكون في المكتبة.

في لهجته برودة ورسمية لم تفت فرانسيسكا التي علقت وهما تشربان قهوتهما:

ـ بهذا الصوت كان يرهب سيسو لكن عليه ألا يستخدمه معك.. ماذا ارتكبت حتى تكدّر منك إلى هذا الحد؟

ـ لا أدري.. لم أفعل شيئاً.. ربما لا يدرك أنه كلمني بقسوة.

ولكن ما أكثر ما سمعت منه هذه اللهجة التي ملؤها الاحتقار والبرودة، لذا لم تعد تخاف منها الآن.. أنهت قهوتها دفعة واحدة وقالت مكشرة:

ـ الأفضل أن أذهب لأرى.

ما أن أقفلت الباب خلفها حتى هاجمها كاليوس، كان جالساً وراء منضدته ولكنه وقف ولم يدعها للجلوس:

- لماذا دفعتني لأصدّق أن رومانو كالينو لا يعني لك شيئاً.. بينما هذا غير صحيح؟

حبست أدوينا أنفاسها، لكنها أحست أنها في أمن..

- إنه صحيح..

- وهل صحيح أيضاً أنك لم تريه بناء على موعد سابق منذ حرّمت عليك لقاءه، ومنعتك عن هذا؟

هذا أمر يصعب إنكاره.. ولكنها مؤمنة أن روزينا لن تحنث باتفاقهما المعيب ولن تخبره عن مسألة الشقة وإقراضها للقاء رومانو.. وهذا يعني أنها ما تزال على أرض صلبة:

- وهذا صحيح أيضاً.. لم أحدّد موعداً لرؤيته.

- وهذه كذبة.

- إنها الحقيقة!

النار السوداء والغضب في عينيه حذراها منه.

سأل متعمداً: إذن.. كيف تفسرين قضاءك ساعات طويلة مع الرجل في شقة روزينا بارنيار التي توسل إليها حتى تقرضه إياها؟

أدركت أدوينا أن شهقة الإحباط التي بدرت منها فضحتها.. ولم تستطع سوى أن تتمتم:

- أنا.. أنا لم..

قال ساخراً: «أوه.. هيا الآن!»

- لم أدبر أمر مقابلته هذه.. ولم أعرف أنه سيكون هناك.. ولم أبق «لساعات».

- من أول المساء إلى منتصف الليل كما فهمت؟

- لا!

- هل يمكنك أن تبرهني هذا؟

تذكرت سخرية روزينا منها في أنها لن تجرؤ على الاعتماد على الخدم.. ولم تحاول..

- لا! كنتما أنت ومادرينغا في الخارج تلك الليلة، في الواقع لم أعرف متى عاد أي منكما.. كنت نائمة.

- إذن تعترفين بوجود اللقاء.. وتذكرين تلك الأمسية.. وكنت مستعدة للكذب بشأنها؟

- لم أكذب.. ولن أنكر وجود رومانو بمفرده في شقة روزينا حين ذهبت إلى هناك.. لكنني أنكر بالتأكيد أنني كنت على موعد معه.. وهل لي أن أسأل كيف عرفت؟ هل خصصت من يلاحقني؟

- لا.. لأنني وثقت بكلمتك.. لا.. لقد حصلت على الحقيقة من روزينا نفسها حين تناولت الغداء معي اليوم.

- تناولت الغداء معها؟ لم أعرف أنك تقابلها؟

- وهل كنت تخافين مما قد تقوله لي؟

- لم تقل لك الحقيقة.. وأعتقد أنه يحق لك الخروج معها إلى الغداء فيما لا أستطيع أنا رؤية صديق بدون طلب إذنك؟

- إن كان ما تقولينه صادقاً فكيف تأخذين مني إذناً؟ كما أن تناول الغداء في مطعم عام لا يوازي أبداً موعداً سرّياً في شقة فارغة، ليلاً.. وأنت لا تنكرين أن كالينو دبر هذا مع روزينا وقال لها إنه يجب أن يراك؟

- لكن هذا لم يكن مدبراً معي؟

- مع ذلك استغليت الفرصة لقضاء الأمسية معه على انفراد.. لقد بقيت.. ألم تبقي؟

ـ أجل.. لكنني بقيت لفترة قصيرة.

ـ فلنقل إنك بقيت وقتاً كافياً لجمع شمل مؤثر.. ولقد استنتجت روزينا من شكر كالينو الحماسي، ومن الزهور، أن اللقاء كان ناجحاً وممتعاً.

سألته بمرارة:

ـ اعترفت بتدبير هذا، ثم وجدت أن من واجبها إخبارك؟

ـ ما كان الأمر ليكون مفاجأة لي لو أخبرتني بذلك بنفسك.

ـ وبما أنني لم أفعل..؟

ـ الاستنتاج واضح.. بدأتما أم لا ببراءة، فأنتما لم تبقيا هكذا.. لذا لم ترغبي أن أعرف.

أغضبها اتهامه الظالم وقررت الرد بهجوم معاكس:

ـ هذا ليس أكثر براءة من لقائك روزينا بدون إخباري! الغداء اليوم.. أتريد مني أن أصدق أنه الأول؟

تعارضت نبرة صوته الناعمة مع حدة لهجتها:

ـ أبداً.

ـ هذا ما ظننته. حقاً! قل لي.. ما هو البريء في الغداء! وبعد الظهر كله يتبعه؟ ولا تقل لي إن الفرنسيين وحدهم يسلون عشيقاتهم بعد الظهر قبل العودة إلى زوجاتهم في المساء! فقد تأخرت أنت على العشاء!

ولم تضف شيئاً.. إذ وصل كاليوس إليها بخطوة واحدة وأمسك معصمها وصفعها.

ارتفعت أصابعها لتتحسس مكان الصفعة.

ـ آه!

أغشت عينيها دموع الصدمة.. فلم تكن الصفعة متوحشة أو مؤلمة.. ولكنها فاجأتها وأوقفتها عن الإسهاب في هجومها.. لا شك أنها بدت سليطة اللسان هائجة ولا شيء يسكتها غير هذه المعاملة.. ولقد دلّ هذا على سخطه منها بأقل قدر ممكن.. لاحظت اختفاء الوفاق الذي حققاه بسبب عدم الثقة التي تولدت من جديد وكادت تبكي لما كان يحمله من وعد، ولم يعد.

ترك كاليوس معصمها وانتظر.. ثم قال لعينيها اللتين غضتهما:

ـ هكذا أفضل.. حين تضبطينني بالجرم المشهود مع روزينا بارنيار يحق لك إطلاق اتهامات سليطة اللسان.. وليس قبل هذا.

ـ لكنك تتهمني ولا دليل لديك!

ـ آه.. لكن ليس هناك ما هو سرّي في تسلية روزينا ولا أجد ضرورة للكذب لأثبت هذا.. في هذا فرق.

لقد أعطاها أذناً صمّاء.. وليتها تعطيه هي أيضاً أذناً صماء..

عندما عادت مكفهرة الوجه شعرت فرانسيسكا بأن هناك متاعب لا يمكن الإفضاء بها إليها لذا لم تطرح أي سؤال ولم تعلق حين لم ينضم كاليوس إليهما.. راقبت مع أدوينا برامج التلفزيون، وتبادلتا الحديث حتى توافقتا على أن الوقت حان للنوم.

في غرفتها تذكرت إحدى المرات التي طالبها كاليوس فيها بحقه الزوجي بكل عجرفة وتملك، غير مهتم بأن كل ذرة منها كانت تنفر منه.

يجب ألا يتكرر الأمر هذه الليلة، فلا تقوى على ذلك.. أقفلت بابها.. لكن كاليوس لم يحاول فتحه ولم يعلق على تحفظها.. وعندما تركت الباب غير مقفل مرة أخرى لم يدخل إلى الغرفة..

وعادا مجدداً الغريبين اللذين كانا يوم زواجهما.

أحسّت أدوينا أن روزيتا ما كانت لتنكث باتفاقهما لولا ثقتها بشدة تأثيرها فيه كونها عشيقته العتيدة هذا إن لم تكن قد أصبحت فعلاً عشيقته، ولولا ذلك لخافت أن تفضح أدوينا علاقة روزينا بسيسو... هذا أخ آخر يضعف أمام سحرها.

ستبقى روزينا آمنة ما دامت أدوينا ملتزمة بالصمت.. حماستها لتحقيق هذا ازدادت توهجاً في الأيام التي أدركت فيها أن كاليوس يلوّح لها بأنه انتهى من أمرها كزوجة يمكن الوثوق بها.

تعاظم تمردها وقررت مقابلة رومانو علنياً.. ستقول لفرانسيسكا متى ستخرج ومع من، وتترك لها مهمة الجدال مع كاليوس أن لا شيء سري في هذا.. ومهما كانت ردة فعله فلن يزداد اتساع الشق بينهما أكثر مما هو عليه الآن.

انتظرت إشارة من رومانو أسابيع.. حلّ فيها الخريف وما يرافقه من أمطار وعواصف.. ولم يكن هذا أمراً غير طبيعي في مثل هذا الوقت من السنة، ففي الشتاء ترزح ڤينيسيا تحت رحمة المياه التي تحيط بها.. لكن في بعض الظروف الاستثنائية تواجه ظروفاً مثيرة للذعر.. وفي هذه الأثناء يعود السواح إلى بلادهم.

في يوم عاصف تلقت رسالة من رومانو يطلب منها ببساطة أن تراه، هذا إذا كانت قادرة على الوصول إلى «بيازال روما» في الحادية عشرة.

توجهت أدوينا إلى فرانسيسكا وأخبرتها بأمر الدعوة ثم سألتها:

ـ هل لي أن أطلب من دينو إقلالي إلى الموعد؟

نظرت فرانسيسكا إلى المطر المنهمر:

ـ بالطبع كارا.. لكن يا له من يوم! قد لا تتمكنين من عبور القنال.

ـ لا يهم.. سأقابل رومانو كالينو لنتكلم فقط.. ولا داعي لترك باحة «روما» فقد نذهب إلى مقهى أو نبقى في السيارة.

اطمأنت فرانسيسكا ووافقت.

ـ بالتأكيد.. وإذا أردتما اقصدا مطعم وأعيدي دينو إلى المنزل، ثم اتصلي بكاليوس واطلبي منه إعادتك إلى هنا.. أو ادعي صديقك رومانو لتناول الغداء؟

ـ لا.. أعتقد أنني سأستبقي دينو.

حين وصلت كان رومانو يذرع موقف السيارات قرب سيارته.. وطلبت من دينو الانتظار وهرعت إلى رومانو.. كانت المقاهي القريبة مكتظة بالناس ولكنهما وجدا زاوية هادئة نسبياً.

سألت: «هل وجدت ما قد يساعدني؟»

هز رأسه: ممكن.. سمعت شيئاً قد لا يكون له أساس.. تعرفين أن هناك معرض للكريستال العالمي في الشهر القادم؟ وتدور في أوساط عالمنا قصة عن أن منصة كريستوس ستعرض شيئاً سرياً فريداً من نوعه.. وقد خطر لي..

التقطت أدوينا أنفاسها:

ـ أتظن أن هذا ما كنت أخشاه؟ وأن سيسو وجد شيئاً في أوراق أبي، وأن كريستوس استغلته؟

ـ يصعب عليّ قول هذا قبل أن أعرف طبيعة هذا الأمر السري الذي سيؤدي إلى تطوير ما في صناعة الزجاج.. ولكنني أعترف أن من الصعب تطوير شيء ما في وقت قصير.. إذا كان شيئاً خفيفاً مثل

النقش والتفصيل.. أجل.. ربما. ولكن المؤسف أنه ليس لدي فكرة عن أفكار أبيك.

- وليس لدي أنا أية فكرة.. ولكني أحتمل أنه اكتشف شيئاً له علاقة بمصقل الزجاج.

- مهما كان ما اكتشف، فقد آمن سيسو أنه سيجعلك ثرية.. لكن إن لم تستطيعي أن تدسي جاسوساً صناعياً في مؤسسة كريستوس فلن يكون أمامنا غير الانتظار حتى يوم المعرض لنعرف ما يخبئونه عن الجميع.

- أجل.

ها هي الآن أمام نتيجة لم تكن راغبة في تصديقها.. لكن إن كان للاكتشاف الجديد علاقة بما خططه والدها، فتقديمه على يد سيسو، تطور على يد كاليوس.. الذي فكر في المشروع ودفعه للنجاح الذي لم يعش سيسو ليشهده.. وهذا يعني أن أوراق والدها انتقلت إلى كاليوس الذي ادعى أنها غير موجودة..

خرجت من تفكيرها لتسمع رومانو يضع الأفكار ذاتها بالكلمات، وبأكثر ما يمكنه من لباقة:

- إن كان شكه في محله فهل ستفضحين أمر خداعه؟..

ترددت أدوينا ثم قالت:

- لا.. فسيسو هو من سرق الفكرة أما كاليوس فهو من نفّذها.

نظر رومانو إليها نظرة ملؤها الشفقة.

- لقد فقدت شجاعتك.. لكنني أتساءل إن كنت تدركين كم من الصعب عليك جعل زوجك.. عدوك؟

تاقت للرد: لقد جعل من نفسه عدواً لي.. لكنها لم تقل

ذلك.. فقد عرفت أن رومانو يسأل.. ماذا سيحدث لزواجها لو أثبتت ذنب كاليوس.. وعليها ألا تعطيه أملاً لأن كاليوس لن يسمح لزواجهما بالانحلال.. ولو ظاهرياً.

قالت لرومانو إن روزينا حاولت إثارة المتاعب بشأن لقائهما في شقتها، لكنها لم تقل له مدى النجاح الذي حققته.. قالت له كذلك إنها لم تجعل من موعدهما سراً هذا الصباح..

قال بلهفة:

- إذن قد نلتقي مرة أخرى.. في طقس أفضل.

ردت: «أجل.. ربما».

ابتسمت ولكنها كرهت أن تستغله.

ولكنها على الأقل وضعت يدها على المؤامرة..

قررت أدوينا ترك ذكر لقائها برومانو لتذكره فرانسيسكا بعفويتها. وأحست بالإنصاف حين قالت فرانسيسكا:

- لقد كانت أدوينا في المدينة اليوم لتقابل صديق سيسو، رومانو كالينو.

قال ببرود: «حقاً؟»

ونظر عبر مائدة الطعام إلى أدوينا:

- لا شك أنّ الرحلة كانت عاصفة؟

- أجل.. لكننا التقينا لشرب القهوة فقط وعدت إلى المنزل وقت الغداء.

هز كاليوس رأسه ببرود، ولم يسأل المزيد وهذا ما أكد لها أن تحركاتها لم تعد تهمه.

غار قلبها.. فقد سمعت كثيراً من المتزوجين يقولون: «الكل منا

طريقه» ومع أنها وكاليوس لم يستمرا معاً كثيراً، يبدو الآن أنهما افترقا إلى الأبد.

أدركت أن شيئاً من التوتر وصل إلى فرانسيسكا، فقد سألت بعد بضعة أيام:

ـ هل تعرفين سبباً يدعو كاليوس لكراهية السنيور كالينو؟ أسأل هذا لأننا لم ندعه مرة إلى هنا مع أن هذا واجب.

ـ يرى كاليوس أنني قابلته كثيراً بعد وفاة سيسو بمدة قصيرة.

هزّت فرانسيسكا رأسها:

ـ هذا ممكن.. يحاول كثيراً تجنّب فضيحة قد تمسنا.. لكن ما العيب في صداقتكما؟ لا أظن أن هناك ما هو معيب.

ـ أبداً.

ـ ومن الطبيعي أن يرغب الشاب في رؤيتك بعد عودته إلى البندقية.. علينا عرض ضيافتنا عليه ولو كرمى لسيسو.. ولكن هذا لن يحدث قبل المعرض الذي يستحوذ الآن على اهتمام الجميع. أعتقد أن كاليوس أخبرك عن حفل العشاء الكبير الذي سيقام عشية المعرض؟

وغيرت بهذا دفة الموضوع، وهذا ما أراح أدوينا.

عندما اقترب موعد المعرض، ظهر أنه حدثٌ وضعت له كل صناعة الزجاج خططاً لما قبله وما بعده.. وأصبح حفل العشاء والمعرض النقطتين الأساسيتين اللتين اتفق عليهما واللتين لا يطغى عليهما أي التزام. أما بالنسبة لأدوينا فالحفل هو نوع من الحد الفاصل ما بين شكوكها الحالية وما بين التوقعات والوقائع البشعة التي ستضطر إلى مواجهتها فيما بعد.. حرمها التوتر العصبي

والخوف من النوم وأفقد شهيتها للطعام.. وفي إحدى الأمسيات وفيما كانت متوجهة إلى حيث فرانسيسكا وكاليوس مادت بها الغرفة ودارت وما إن وصلت إلى الباب حتى فقدت الوعي.

سرعان ما كان كاليوس إلى جانبها يرفعها، ويضغط رأسها في فجوة كتفه، ويدعمها بذراعه.. أما فرانسيسكا فسارت خلفهما ووجهها ملؤه العطف والقلق.. حملها إلى المقعد قرب النافذة، وألقاها عليه، ثم وقف يتطلع إليها وأصابعه على نبضات معصمها.. يسأل:

ـ ما سبب هذا؟

عاد التركيز إلى عينيها، فجلست لتقول:

ـ لا أدري.. لكنني على ما يرام الآن.

دفعها برفق لتستلقي وسارعت فرانسيسكا لوضع وسادة تحت رأسها.. وقال:

ـ الإغماء ليس «لا شيء» أبداً. سأستدعي الطبيب باريولي لك.

ـ لا.. أرجوك. إن لم أتحسن غداً فاستدعه.. لكنني سأتحسن.. وقد تحسنت فعلاً.

سألتها فرانسيسكا:

ـ هل يمكنك تناول بعض العشاء؟ قصعة صغيرة من حساء «برودو ريستريتو».

شعرت أدوينا بالقرف من مجرد التفكير في الحساء..

ـ كوب مياه غازية وقطعة بسكويت جافة فقط.. وربما من الأفضل أن أذهب إلى الفراش.

وافقت فرانسيسكا:

ـ طبعاً.. وسأرافقك.. هذا أفضل ما تفعلينه.

تركهما كاليوس تذهبان بدون ذكر الطبيب.

ارتشفت أدوينا المياه الغازية على ضوء المصباح إلى جانب السرير.. كانت قادرة دوماً على النوم في بداية الليل فهي لا تقلق إلا قبل الفجر.. بعد قليل من الوقت أجفلت وصحت من منامها فوجدت المصباح ما يزال مضاء، وشخص ما واقفاً بالباب.

سألت: مادرينغا؟ كنت نائمة..

لكنه كان كاليوس الذي دنا منها. وسأل:

ـ هل أيقظتك؟

ـ لا أعتقد هذا.. ربما السبب الضوء المسلّط على عينيّ.

مدّت يدها ورفعت خصلة عن وجهها ولكن يده سبقتها، ورفعت الخصلة قبل أن تلامس جبهتها.

ـ أنت باردة.. هل أنت حقاً بخير؟

ـ أجل.. قلت لك..

ـ وهل تريدين شيئاً؟

صاح عذابها: أجل.. أجل.. أريد أن أمد ذراعيّ إليك.. لتضمني بين يديك.. ولأبكي وأبكي على كتفك، متوسلة إليك أن تسامحني على شكي فيك.. مهما كنت.. ومهما فعلت معي من أخطاء..

ولكنها قالت:

ـ لا شكراً لك.. أتوقع أن أغطّ من جديد في النوم.

هز رأسه، وملس الملاءة والغطاء ثم وضع إصبعه على زر المصباح ونظر إليها متسائلاً.

ـ أجل.. أرجوك أطفئه.

بعدما حلّت الظلمة عليهما سمعته يقول:

ـ هل هناك ما تريدين قوله لي؟

خفق قلبها خوفاً من الشر الذي قرأته في كلماته العادية.. ما الذي يعتقد أنها تخبئه عنه إلا إذا عرف بظنونها فيه وفي سيسو؟ هذا مستحيل.. لا أحد يعرف بهذا غير رومانو المخلص وهو موضع ثقتها.. ولكن سؤاله يشير إلى شيء آخر.. شيء لا علاقة له بما تفكر فيه.. دفعتها الفكرة للرد بخفة:

ـ أقول لك؟ شيئاً نسيته؟ لا.. لا أعتقد هذا.. ما هو؟

سادت لحظات صمت مخيف.. ثم قال:

ـ لا يهم.. لقد أخطأت! غلطة مني.

وسمعته يخرج ويقفل الباب خلفه.

غلطة منه! لو ترك الأمر عند كلمة لا يهم، لصدقت قوله.. ولهدأت.. لكن ادعاءه أنه كان يتوقع شيئاً منها وخاب أمله، غيّر كل شيء.. ثم سيطر عليها الأرق الذي كان بانتظارها وامتزج بالتخيلات والنوم.

كانت الڤيلا ستستضيف ألمانيين قدما ليشتريا الكريستال لمحلاتهما في دوسلدورف وبرلين. وكلاهما سيد مهذب، رسمي، ويتكلمان لغة إيطاليةً ممتازة.. وصلا صبيحة العشاء.. وبسبب غياب كاليوس الذي كان مشغولاً بترتيبات اللحظة الأخيرة استقبلتهما فرانسيسكا وأدوينا للغداء.

كان الكلام بالطبع عن الزجاج أساساً.. قال الهر ادولف في سياق الحديث:

- نحن نأتي إلى ڤينيسيا، ولا يخيب أملنا أبداً بالنسبة لمتطلبات السوق عندنا.. لكن بالنسبة لمبيعاتنا المتوسطة المستوى نرى أننا مضطرون إلى اللجوء إلى النمسا وتشيكيا.. إنهم يفهمون حاجات الأسواق عامة.

قالت فرانسيسكا: سمعت ابن زوجي يقول إن كلفة اليد العاملة لديهم منخفضة أكثر من الكلفة عندنا.

أضافت أدوينا:

- ومن أجل الإنتاج الشعبي، لا يحتاجون إلى العمال الماهرين الذين هم عندنا من ذوي المستويات العالية..

قال الهرادولف موافقاً:

- هذا صحيح بالتأكيد.. ولكن على أي حال، لا يبدو أن هناك ما يمنع بعض المعامل الرائدة في ڤينيسيا من التفكير في تجربة اختراق السوق الأدنى مرتبة إضافة إلى الإنتاج المرتفع المرتبة.

قال الهربريغمان:

- قد نجد خلال المعرض أن أحداً فكر بالفكرة.

ارتدّ الهر ادولف مبتسماً إلى أدوينا:

- ربما.. يقال إننا سنتوقع شيئاً جديداً.. مثلاً سنيورا.. هناك شائعات مثيرة للاهتمام آتية من كريستوس، لكنني أعتقد أنني لن أحصل على تأكيد منك عن حقيقة هذه الشائعات قبل افتتاح المعرض؟

ردت أدوينا بابتسامة خفيفة:

- لا أستطيع حتى ولو أردت.. فأنا نفسي لا أعرف الحقيقة.

- لا؟ إذن يجب أن نصبر وننتظر.. صدقيني لا أنوي التطفل على

أسرارك سنيورا.. الأمر فقط أن الشائعات تدور عن اختراع للسنيورا رانسيمو يجب أن يقفز في وجوهنا وفكرة الاختراع انكليزية.. وبما إنك إنكليزية، وعشت في جو صناعة الكريستال.. يتساءل المرء..

صمت الهر ادولف.. وغطت فرانسيسكا بلباقة شهقة أدوينا الحادة بقولها:

- يجب أن تعرف أن كاليوس هو رانسيمو أصيل.. وأن منزله هو منزله فقط كما كان المرحوم زوجي.. وصنعتهما هي صنعتهما.. ولا يسمح لأي منهما أن يزعج الآخر. لذلك، ولو أننا قد نسمع شائعات..

قال هر بريغمان، يجرب إنكليزيته:

- بكلمات أخرى: لا يلتقي الضدان أبداً.. كما يقول الإنكليز.. أليس كذلك؟

بعد هذا هل تجرؤ على الأمل بألا يكون كاليوس مذنباً؟

كانت أدوينا قد قصدت السوق برفقة فرانسيسكا لشراء فستانين للسهرة وكانت فرانسيسكا تفكر في شراء فستان أسود لها ولكنها أقنعت أدوينا بشراء فستان مطرز بالفضة يصل إلى ركبتيها، أطرافه التي تشبه المروحة كانت تتلوى إلى الداخل والخارج وهي تسير، وكان آنق فستان ارتدته يوماً.. ولكنها تحولت إلى التمرد عندما طلبت منها فرانسيسكا أن تستعرضه لينال موافقة كاليوس.

- وإن لم يوافق عليه فهل هذا يعني أن عليّ ارتداء شيء آخر؟

أجابت فرانسيسكا: من المؤكد أنه سيعجبه.. لكنك تفهمين أن العشاء، هو أكبر المناسبات في السنة وفي هذه السنة هو أول حفلة عشاء يقيمها وهو متزوج.. أعرف أنك ترغبين في أن يكون فخوراً

بزوجته.

كادت تتهور وتقول لها ليظهر مدى قدرته على إعالة زوجته.. تعنين؟ لكنها لم تقل هذا.. وفي إحدى الأمسيات، ارتدت الفستان ودعته إلى غرفتها ليراه.. فتطلع إليها من فوق إلى تحت بعين متفحصة وسأل:

- من أجل حفل العشاء؟

- أجل.. هل هو مناسب؟

- سيكون محطّ حسد الآخرين مهما كان شريك عشائك.

وكان هذا مديحاً بارداً غير شخصي. ولكنها كانت مستعدة للتخلي عن أي شيء لتسمعه يقول شيئاً مثل: وما هو المهم في فستان..؟ أنت جميلة مهما ارتديت.. شرط أن يعني ما يقول.

افترقا حالما وصلا إلى الفندق. وتركت أدوينا فرانسيسكا مع بعض الأصدقاء، وذهبت للبحث عن رومانو في البهو المزدحم أو الصالون.. وكان هو من شاهدها أولاً فأبعد نفسه عن زملائه ولم تشعر إلا به يضع يده على ذراعيها.

- آه رومانو..

رأت نظرة الإعجاب في عينيه ولكنّها لم تستمتع بها، بل قالت:

- الأمر صحيح! لقد سمعت الكثير منذ التقينا.. هل سمعت أنت شيئاً؟ لقد سمعت أن كائناً ما يكون الذي ستقدمه مؤسسة كريستوس، فالفكرة أتت من انكلترا! وهذا يعني..

- أجل.. سمعت بهذا.. اليوم.

وقفا يتبادلان النظرات والشكوك بصمت.

***

٩ ـ ما بعد الشك

جاء كاليوس إلى غرفتها في الصباح التالي في الوقت الذي كانت تتناول فيه قهوتها، وقال:

- سأذهب إلى المعرض الآن، ولا داعي لذهابك حتى يفتتح أبوابه.. لكن الناس سيرغبون في رؤيتك وفي التعرف عليك عند منصة كريستوس.. لذا أرجو أن تفرغي وقتك غداً لتكوني موجودة طوال الوقت.

- هذا ما كنت أنويه.

- عظيم.. سيقلّك دينو مع مادرينغا إلى رصيف «روما» أما السيدان الألمانيان فسيكون لهما ترتيبهما الخاص، ثم سأرسل اللانش ليقلكما إلى المعرض.

- أتعلم.. ليلة أمس تحدث الجميع عن مفاجأة كريستوس، كما سماها أحدهم. وما دام عليّ الوقوف وراء المنصة، أوَليس من المفترض أن أعرف ما هي؟ هناك مفاجأة.. أليس كذلك؟ ولكنك لم تخبر حتى فرانسيسكا عنها؟

ارتدّ إليها:

- لقد طورنا عملية جديدة.. أجل.. وهي سرنا الصناعي.. لكننا سنعرض أولى النتائج في المعرض اليوم.

ـ وما هي هذه النتائج؟

ـ سترينها بنفسك.. ومن الأفضل أن تكوني هناك قبل الافتتاح لأريك إياها.

حاولت أن تتكلم قبل أن تسأل:

ـ أنت غامض في كلامك.. وهل اقتضى هذا التطوير وقتاً طويلاً ليتحقق؟

ـ نعم.. وقتاً طويلاً.. ولكننا أدرنا المفتاح الأخير في قفل الحل مؤخراً.

بللت شفتيها الجافتين فجأة:

ـ حقاً؟ منذ متى؟

ـ هذا الصيف فقط.

انتظرت أدوينا.. هذه هي النقطة التي سيضطر فيها إلى القول إن إدارة المفتاح هي من إنجاز أبيها.. وإن لم يقل شيئاً، فهذا ما سيجعله مذنباً.. أليس كذلك؟

ولم يقل شيئاً.. بل ألقى نظرة إلى ساعته ومضى في طريقه..

لقد ارتكب غلطة عندما اعترف أن المشروع لم يكتمل فصولاً سوى منذ وصلت إلى ڤينيسيا.

عندما نزلت إلى الطابق الأرضي وجدت دينو بانتظارها وبانتظار فرانسيسكا وكان عليه أن يقلهما باكراً ليصلا قبل ساعة من افتتاح المعرض رسمياً.

كانت قاعة العرض مشرقة على نقيض الطقس القاتم في الخارج. كان الكريستال والزجاج يبرق ويتلألأ تحت أنوار الثريات الرائعة الضخمة.. وعلى المنصات عرّضت أفضل صناعات ڤينيسيا

التقليدية.. انتشر الباعة في كل مكان وكانوا يتبادلون الأحاديث جماعات جماعات أو يضعون آخر اللمسات على منصات عرضهم، وينظرون بفضول لمنصات المنافسين.

لم يكن من الصعب معرفة أن أكثر ما يجذب الناس هو القارات وآنية الشراب والكؤوس على مختلف أحجامها التي نقش عليها بحروف من ذهب والتي كانت رسومها ملونة يدوياً بتصاميم دقيقة، من باقات الزهور إلى المناظر الريفية فالنماذج العصرية.

كان واضحاً من خلال شهقات وتعليقات الإعجاب من النظّارة أن الإنجاز فريد من نوعه.. ولكن أدوينا رغم خبرتها بالكريستال، لم ترَ شيئاً يماثل هذا في الألوان.

أمسكت فرانسيسكا كم سترة كاليوس:

ـ رسم يدوي، بعد النار والتشكيل؟ كيف.. كيف كاليوس؟

اتجهت أنظاره من فوق الجموع إلى المنصة:

ـ ألن يحب هؤلاء السادة جميعهم معرفة هذا؟

جذب فرانسيسكا وأدوينا جانباً، وتابعت فرانسيسكا:

ـ لقد عمل والدك على هذا لسنوات.. أعرف هذا وكانت إحدى المشاكل القليلة التي اعتذر لي عن إزعاجي بها.. لكن أنت! لقد نجحت!

ارتدت إلى أدوينا:

ـ زوجك نابغة في صناعة الكريستال كارا!

وعادت إلى كاليوس:

ـ كم استغرقك هذا الإنجاز؟

أدركت أدوينا أن كريستوس أنجزت عملاً ينظر إليه الآن

بإعجاب.. لكن يجب على رومانو أن يقول لها إلى أي مدى كانت شكوكها صحيحة، بأن سيسو هو الذي ألقى الضوء على هذا السرّ المختلس.. السر الذي استغله كاليوس.

كان كاليوس يرد على فرانسيسكا:

ـ أكثر من سنتين.. عمل المصممون في كل البلاد.. ثم توصل رسامونا الفنانين إلى رسم مقبول على آنية الشرب.. لكن الرسم كان يتفتت في النار، وهذا ما كان يتركنا مراراً ومراراً مع أكوام الرماد.

ـ لكنكم نجحتم؟

ـ عن طريق الصدفة فقط.. مثل أفضل الاختراعات.. كان هناك حلقة مفقودة راوغتنا حتى هذا الصيف.

ارتدّ إلى المنصة وأعطى كلا منهما قطعة لتتفحصها.

ـ ليس عملية تجارية.. لكن هناك دائماً سوق لما هو أفضل.. وكريستوس لا تهتم بأقل من الأفضل.

قالت فرانسيسكا: «ستكون هذه قطعاً للهواة.. وإرثاً تتناقله الأجيال جيلاً بعد جيل».

ـ هذا ما نأمله.

بدأت الحركة الآن.. المعرض على وشك أن يفتتح.. وكاليوس مطلوب على المنصة الرئيسية. فاعتذر وتركهما.. وبدا أنه لم يلحظ صمت أدوينا.

فيما بعد، بقيت فرانسيسكا خلف منصة كريستوس، وذهبت أدوينا تفتش عن رومانو.. الذي وجدته مشغولاً مع زبائن برونو مانيستي ولكنه كان على استعداد ليسمعها:

ـ هل رأيت؟

هز رأسه: رأيته أنت كذلك؟

ـ أجل.

ـ وهل أنت سعيدة ومستريحة كما آمل؟

قطبت:

ـ مستريحة؟ أتظن أن بإمكاني أن أستريح.. لماذا؟

ـ لأنك يا فتاتي العزيزة أدركت أن طبخ القطعة المنتهية بالنار يقتضي سنوات لتنجز بشكل كامل.

ـ يقول كاليوس أكثر من سنتين.

ـ لذلك.. فسّري الأمر كما تريدين.

ـ أتعني أن الاختبارات على هذا النموذج البدائي استغرقت مدة طويلة وأن هذا يعني أن الفكرة غير مسروقة عن أبي.

ـ بالضبط.. إذ لم يكن هناك وقت لاستغلال فكرة أبيك.. بكل بساطة.

ـ لكن كاليوس اعترف أنه مني بالفشل تلو الفشل وأنه وجد الحلقة المفقودة هذا الصيف فقط!

بدا رومانو مجفلاً:

ـ وهل قال هذا؟ وما هي هذه الحلقة؟

ـ لم يتوسع في الشرح.. فهو لا يتكلم بالتقنيات أبداً.. لكن كلامه يعني أن سيسو سرق هذه الحلقة المفقودة فقط.. ألا ترى هذا؟ ولكن ماذا قصد سيسو عندما قال إنني أجلس على منجم ذهب وإنه لن يحصل عليه إلا بالزواج بي؟

نظر إليها رومانو نظرة إشفاق:

ـ عزيزتي.. ألم يحن الوقت لك لتجدي السعادة.. ولتنسي ما

استرقت السمع إليه؟ سيسو مات.. وأنت متزوجة بكاليوس بمحض إرادتك كما تقولين.. فماذا ستكسبين إذن من المضي في هذا؟ ستدمرين نفسك..

- لي الحق بمعرفة حقيقة سيسو.

- وكاليوس؟

- لا شك أنه استخدم الفكرة التي سرقها سيسو، فقد سافر إلى انكلترا خلال زواجنا.. وقد ذكر الضيفان الألمانيان في القيلا أن الفكرة جاءت من انكلترا.

- وماذا ستفعلين في هذا؟

- أنا.. لا أدري.. أملت أن تقول لي.

هز رومانو رأسه:

- لا أنصحك باتهامه على أساس دليل صغير كالذي بين يدينا.. حتى ولو وضعت جاسوساً في الشركة ليجد لك ما هي التركيبة، فستكون كلمة مؤسسة كريستوس ضد كلمتك.

- ولكن ليس لي كلمة أبداً! ولا أعرف ماذا «سرق» سيسو، ولا ما أبحث عنه!

- ولا تريدين حقاً اتهام كاليوس كما أعتقد.. وهذه حكمة منك.

- حكمة؟

- حكمة إذا كنت تقدرين قيمة زواجك.. وأظنك تقدرينه.. نعم لا أنكر أنه فرض عليك عرض الزواج بخدعة ألقاها في وجهي.. لكنني لا أصدق للحظة أنك قبلت بهذا من أجل الانتقام.. بل أعتقد أن عقلك اللاواعي كان يريده، ولا يزال يريده.. ولا بد أنك عرفت حتى الآن أن زواجكما ناجح لهذا السبب لا تواجهيه بشكوك

واتهاماتك التي يستطيع بسهولة ردها في وجهك. ألا توافقيني الرأي؟

سألت ببطء:

- وهل تقول إنني بدأت أحبه؟

- يا فتاتي الحلوة.. كان بإمكاني أن أقول هذا بعد عودتك إلى فينيسيا! وما أكد لي ذلك ترددك في الاعتراف بأنك لا تستطيعين تركه.. طاعتك له بعدم رؤيتي..

أخبرته تنهيدتها الطويلة بأنه على حق.. فقد هز رأسه:

- هكذا.. لا اتهام؟ زواجك مستمر كما هو حتى الآن وعليك الانتظار.

ابتسمت ابتسامة هزيلة:

- أنت رائع رومانو.. حسناً.. سأنتظر.

- عليك أن تظهري مدى استمتاعك بهذا النجاح معه؟

- سأحاول..

- فتاة طيبة!

وانحنى يقبل خدها.

- سأبقى على اتصال بك.

ذلك اليوم قضت يومها بإظهار براعتها الاجتماعية وعمدت إلى شرح المعلومات ثم تلقت مذكرة وصلت لها باليد، وكانت من رومانو: «لم أقل لك هذا الصباح لئلا أزيد تكدرك.. سأسافر ثانية بعد إغلاق المعرض فوراً.. سأكون سفير برونو ماليستي. ولكنني لا أعرف كم سأغيب.. وفي هذه المرة سيكون لي عنوان مستقر.. ولقد عنيت عندما قلت إنني سأبقى على اتصال بك.. وآمل أن تزوديني

بأخبارك. واثق أنك تعرفين مشاعري نحوك أدوينا.. ولكنك لا تعرفين كم من الصعب مقاومة إغوائك إلى ما بين ذراعي.. ولهذا السبب أفضل ألا أراك قبل سفري ولكن لا تنسيني.. أرجوك».

قرأتها أدوينا مرتين.. وتصاعدت دموع الشفقة على الذات إلى عينيها.. إنه لا يستطيع فعل شيء أكثر لها.. ومن الأفضل ألا يلتقيا.. لكنها لم تشعر قط بهكذا وحدة!

* * *

١٠ ـ العدو المشترك

ظل الطقس السيء يضرب المدينة.. وفي صباح قاتم استيقظت أدوينا.. وهي تعرف.

لم يوقظها الشعور بعدم الراحة أو القلق بل شعور آخر.. شعورها بأنها حامل. لم تكن تحلم.. بل كانت مستيقظة.. لكن للحظات استولت فكرة الحمل على كل تفكيرها. وعندما استولت الفكرة على تفكيرها، تذكرت الدلائل والاضطراب الغريب الذي أصابها والذي تجاهلته في حينه.. كيف تنسى إغماءها على باب الصالون والدوار الذي لفّها عندما رفعت رأسها. وسؤال كاليوس لها ليلة الإغماء: هل هناك ما تريدين إخباري به؟ سؤال أساءت فهمه، ولم تتمكن من الرد عليه.. لكن كان يجب أن تفهم مضامينه.

عادت بها الذاكرة إلى الوراء.. إلى الليلة التي أخذها فيها إلى الخليج وتشاركا فيها ليلة حب بدون قيود.. وتذكرت آمالها ودعاءها ذلك الصباح.. واليأس الذي عقبه.. لكن الآمال استجيبت.. إنها واثقة وكأنها متأكدة طبياً.. أنها تحمل طفل كاليوس. ويجب أن يعرف، فهي على الأقل بهذا ستفي بالدين الذي يدعي أنها تدين له به.

بعد الظهر، حين ذهبت فرانسيسكا لتأخذ قيلولة ردت على

www.elromancia.com

الهاتف، وكان كاليوس هو الذي يتصل من أحد معامله في جزيرة سان باولو.

ـ أدوينا! أريد منك أن تأتي إلى هنا.. أطلبي من دينو أن يقلّك إلى رصيف روما وهناك ستجدين ليو بانتظارك باللانش. أما دينو فاطلبي منه العودة إلى المنزل لأنني سأعيدك أنا.

تمتمت أدوينا بدهشة إذ لم يسبق أن سألها الحضور إلى الجزيرة. وأضاف:

ـ أعرف أن الطقس رديء، لكنك ستكونين آمنة مع ليو.. ومن المهم قدومك.

أقفل الخط دون انتظار أي سؤال.

مع أنها شعرت بأن هناك نذير شؤم أقبلت على الحركة بشيء من النشاط.. ونادت دينو من غرفته التي هي فوق المرآب، ثم ارتدت حذاء مرتفع الساقين ومعطفاً واقياً من المطر وقبعة مماثلة وتركت رسالة لفرانسيسكا تخبرها بأمر ذهابها إلى الجزيرة.

كان ليو بحار كاليوس الخاص ينتظرها على الرصيف، وقال لها مطمئناً:

ـ الخليج آمن..

سان باولو جزيرة صغيرة منفردة، تبعد عدة أميال عن أرخبيل مورانو الذي فيه معظم مصانع الزجاج الأخرى.. راحت المياه تضرب بغضب مقدمة الزورق وجوانبه، وعندما وصلا ساعدها ليو على النزول ثم أحكم ربط اللانش قرب إحدى سيارات المدينة المائية.

تبادل الرجلان التحية ثم أخذا يتبادلان الحديث أما أدوينا

فاتجهت إلى الباب الرئيسي، لكن قبل أن تصله خرج كاليوس وجرّها إلى تحت سقف الشرفة الواسعة ثم اقتادها إلى الردهة وهناك ساعدها على خلع معطفها، وراقبها وهي تنزع القبعة وتسوي شعرها، ثم قال:

ـ ما كان يجب أن أحملك على المجيء في مثل هذا الطقس لولا أهمية الأمر.. على أي حال، لست الوحيدة.. فلدينا زائر آخر عليك مقابلته.. تعالي.

فتح باب مكتبه، وتراجع.. سبق لسيسو أن رافقها إلى المصنع وهي ما زالت تذكر الغرفة التي تفتقر إلى لمسة الأنثى والأناقة بمنضدتها العملية وأدراج الملفات، والمقاعد الجلدية العميقة وبضع نباتات مزهرة على الخزائن المنخفضة.

اليوم وهي تدخل قبل كاليوس، أحست بوجود شخص كان يدير ظهره إليها.. ولكنها لم تتعرف إلى روزينا بارنيار إلا بعد أن استدارت.

أمر مهم؟ أن يستدعيها إلى هنا لمقابلة عدوتها؟ هل استنبط كاليوس وسيلة أكثر قسوة للاعتراف بواقع علاقته بروزينا؟ أحست بالبرد يجتاحها.. وكانت على وشك أن تسأل: ما دمت تريد أن نفترق، فلماذا لم تستدعني إلى مكتب المحامي؟ حين تقدمت روزينا إلى المنضدة تضربها بسخط:

ـ هذا كثير! أنا راحلة!

وبدأت تربط منديلاً حول رأسها ومدت يدها لتأخذ معطفاً واقياً من المطر.. لكن كاليوس تقدم نحوها لينزع أصابعها عن المعطف الذي رماه فوق الكرسي.

قال بصوت بارد كالثلج تعرفه أدوينا خير معرفة:

- بل ستبقين!

- سأذهب.. أنت تريد أن تجلب العار لي..! لقد خدعتني.. ولكنك لا تستطيع استبقائي رغماً عني.. رجلي ينتظرني!

- لم يعد بانتظارك.. كما أخشى.

- ماذا تعني؟ قلت له إنني سأحتاجه ليعيدني..

- وأنا عكست الأوامر.

- كلام سخيف.. كيف تفعل بعدما أصدرت أوامري له؟

- عمدت إلى هذا حين جئت بأدوينا.. انظري بنفسك.. لا.. ليس من هذه النافذة.. بل الأخرى، وسترين زورقي هناك.

صمت قليلاً ثم أضاف بهدوء خطير:

- لقد دعوت نفسك إلى هنا.. ولم أنته بعد منك. عندما أكون مستعداً لتركك أسمح لك بالذهاب، وليس قبل هذا. وأعد أن يقلّك بحاري آمنة.

حاولت آخر دفاعاتها:

- لدى عمالك جميعهم مراكب.. فليقلني أحدهم.

نظر إليها نظرة شفقة:

- يا عزيزتي.. اليوم عيد جميع القديسين.. وهو يوم عطلة.. وكنت محظوظة لأنك وجدتني هنا.. بعد ملاحقتك إياي في كل مكان. وأشك أن يقبل أي شخص هنا الانطلاق في البحر في مثل هذا الطقس العاصف. لذا انسي أنك ذاهبة إلى أي مكان إلا مع ليو. ولن يكون ذلك إلا بعد فترة غير بعيدة.

بين حيرة روزينا وتجاوب كاليوس الفولاذي، ظلت أدوينا واقفة

وكأنها غير موجودة بالنسبة إليهما ولكن كاليوس ما لبث أن أشار إليها أن تجلس.. فجلست وهي تفترض أنها عاجلاً أم آجلاً ستعرف ماذا يجري.

تابع كلامه مع روزينا:

- تفهمين بالتأكيد أنني أرسلت بطلب أدوينا لتسمع بنفسها كل ما استغرق عدة أسابيع لأجبرك على الاعتراف به؟ لذا قولي لها.. منذ البداية.. أرجوك.

رمت روزينا بنفسها على مقعد له مسندين:

- لقد انتزعت كل شيء مني بالحيلة.. ألا يكفيك هذا؟

هز رأسه نفياً:

- لن ألعب دور المراسل الذي يقدم تقريراً. ستقولين لها بنفسك إنك وسيسو كنتما عشيقين.. وإنه ظلّ عشيقك حتى يوم مقتله.. ابدئي من هنا.

سخرت منه روزينا: «هه! إنها تعرف هذا»

- ممن؟ من سيسو؟

- لا، بالتأكيد أيها الأحمق! قلت لها بنفسي، أو على الأقل تركتها تحزر ذلك.

- أجل.. هذا ما قلته لي.. لكن لماذا؟

- لأضعها في مكانها.

نظرت إلى أدوينا بحقد كامل:

- حسبت أنها حصلت عليه بالحب.. وما أكثر ما ضحكنا عليها لهذا! ثم حصلت عليك.. مع أنني لا أعرف لماذا وكيف.

- ولم يقل لك أحد.. لكن تابعي.. قولي لأدوينا لماذا كنتما

تضحكان؟

ـ لأن زواجه بها لم يكن ليشكل فرقاً لنا.. لأنه ما كان يريد الزواج بها إلا ليضع يده على سرّ عمل لوالدها، لا تعرف عنه شيئاً.. الواقع أنه رتب قبل مقتله الأوراق الخاصة بهذا السر وعرضها للبيع، وكان يتكل عليها للحصول على ثروة.. وقال لي إنه حتى أنت ستكون أعمى إن رفضتها.

ارتدت يدا أدوينا وتشابكتا حتى ابيضت عقد أصابعهما، وانغرزت أظافرها في كفيها.. حتى الآن تفهم كل هذا، وتعرف القصة. ولكن في الأمر ما لم تفهمه.. فقد تذكرت قول سيسو لرومانو إن اهتمام كاليوس باكتشافه كان فاتراً.. ولكنه على ما يبدو غيّر رأيه.. إذ استخدم الفكرة.. وها هو الكريستال المطلي شاهد على ذلك.

ازداد الأمر غموضاً حين سمعت كاليوس يقول لروزينا:

ـ لأن اكتشافه لم يكن بذي قيمة تجارية لنا، فكريستوس لا تحتاج لإرضاء الأسواق المتوسطة في الوقت الذي تحرز فيه على هيبتها بالكريستال الممتاز النوعية.. ولم يكن لدي نية في تخفيض مستويات الإنتاج، وتبنّي الإنتاج الرخيص في حقل الكريستال.. لكن تابعي، وقولي لأدوينا ماذا حصل لخطط ريكاردو ليتل للزجاج الرخيص التي سرقها سيسو؟

هزت روزينا كتفيها:

ـ لقد جعلتني أخبرك.. فأخبرها أنت.

ارتدّ إلى أدوينا:

ـ حسناً.. حين تعاملت مع أوراق سيسو بعد موته لم أجد ما له

علاقة بأفكار أبيك لاجتذاب الأسواق الشعبية وهي الأوراق التي قدمها لي، ورفضتها.

قالت أدوينا:

ـ أعرف هذا.. ولكن عندما سألتك عن الأوراق التي أعطيتها لسيسو، قلت إنك لم تجد شيئاً يهمني.

ـ بالضبط. واضطررت أن أنتزع من صديقتنا روزينا، إنه بعدما عجز عن اجتذاب اهتمام ڤينيسيا به تحت اسم رانسيمو حاول حظه مع السوق الشعبية خلف الستار الحديدي السابق، وقدمها على أنها له بعد أن تخلص من دليل أصلها العائد لأبيك.

أخذت أدوينا تصارع موجة من الارتباك وبدأت تحاول الاستفسار:

ـ بحيث أنه...؟

ـ بحيث أنه ماذا؟

ـ لا شيء..

لن تعترف أبداً بشكوكها فيه، خاصة أمام روزينا فهو لم يسرق منها شيئاً! والكريستال الملون الثوري لا يدين بشيء إلى والدها! هو الآن يعرف أن سيسو غشها، ولماذا يعامل روزينا كعدو مشترك لهما ويقف إلى جانبها مؤيداً؟.. كان إدراكها هذا بمثابة الخروج من نفق مظلم إلى النور.. وبإمكانها الآن أن تنتظر لتتخلص من شرك الغموض الذي دفعها إلى عدم الثقة والانتقام لشيء لم يقترفه.

كانت روزينا ترتجف وهي بيضاء شحوباً.

ـ انتزعت! أهذا وصفك لخداعك إياي حتى تعرف كل شيء عن علاقتي بسيسو؟ متى بدأت.. كم استمرت، وهل بقيت إلى ليلة

مقتله وهو مسرع لئلا يتأخر عن موعده معي، وكان بالإمكان أن نستمر بعدما..

ومدت إصبعاً حاقداً نحو أدوينا:

- .. تتزوج به.. لقد خدعتني وتركتني أعتقد أنك وقعت في حبائلي.. بينما كل ما تريده هو «انتزاع» كل شيء مما أعرفه عن خداع سيسو ومناوراته.. وعما إذا كان مخلصاً لها أم لا. حسناً لم يكن مخلصاً.. وكان سيبقى على عدم إخلاصه وإن سبب لها بعض الأرق بسبب علاقتك بي، فأنا سعيدة.. هل تسمع.. سعيدة! فهي من النوع الغيور الذي يلزمه الكثير من الإقناع.. وإن لم يكن لديها نوايا مريبة بزواجها برأس عائلة رانسيمو الذي لم يهرب منها.. والأنكى..

مدت يدها مجدداً لمعطفها وفي هذه المرة لم يمنعها كاليوس.

أضافت: «أنت إذن لا تعرف الحقيقة عنها وعن رومانو كالينو.. أليس كذلك؟ آه! أجل.. كانت على استعداد لتركه حين حصلت على اهتمامك، لكن ماذا حدث بعد ذلك؟ لا شك أنك ستسألها ولا شك أنك ستصدقها.. لذا هل لي أن أتمنى لك السعادة مع أكاذيبها؟

قال كاليوس ببرود حاد:

- تمني لي السعادة بالطريقة التي تريدين طالما هي المرة الأخيرة التي نرى لك فيها وجهاً.

ردت بحقد:

- وتستطيع الاعتماد على هذا.. فأنا لا أستطيع الانتظار للخروج من هذا.. من مجارير المدينة هذه..

- هل ستعودين إلى زوجك؟

- هذا ما لا شأن لك به!

- هذا صحيح.. وحين يحصل هذا فسيكون من شأن السنيور بارنيار وحده.. هل أفهم من هذا أنك الآن على استعداد أن يقلك ماريو؟

- طبعاً.

- إذن.. سأرافقك حتى اللانش وأطلب منه أن يعود ليأخذنا.

تقدمت كاليوس الذي أقفل الباب خلفهما.. فبقيت أدوينا بمفردها ضائعة مذعورة.. لن يغيب كاليوس كثيراً.. وعند عودته ماذا تقول له.. وماذا سيقول لها؟ سيطرحان أسئلة على بعضهما بعضاً.. ولقد تركت روزينا ما يكفي من سمّ لجعلها تتخوف من ردودها.

تقدمت إلى النافذة تراقب ابتعاد اللانش لكنها ارتدت لتواجه الباب حين عاد. وقفت هناك لحظات.. ثم فتح لها ذراعيه في دعوة عفوية لم يظهرها لها من قبل.. نظرت إليه متعجبة تبحث في وجهه الحبيب، ثم.. ثم تحركت بخطوات مترددة، ثم هرعت إليه مستسلمة.. وأقفلت ذراعاه حولها وقال لرأسها المنحني على صدره:

- عليك إيضاح أمور كثيرة.. أليس كذلك؟

رفعت إليه رأسها:

- وعليك أنت توضيح الكثير..

- صحيح.. أمور كثيرة يجب أن نوضحها.

اقتادها إلى الأريكة وجلس إلى جانبها، ممسكاً بيديها:

- لكن أحمد الله أن الوقت لم يَفُت لبعض الأسئلة والأجوبة..

أخبريني.. أكنت تعرفين عن علاقة المرأة وسيسو؟ ومنذ متى؟

ـ منذ الليلة التي حاولت فيها ترك القيلا ومنعتني، منذ يوم مقتله عندما كان ذاهباً لمقابلتها.. وعرفت هذا لأنني سمعته يتحدث بهذا هاتفياً مع شخص سماه رومانو..

ـ رومانو.. ما كنت تعرفينه يومذاك؟

ـ لا.. كان مجرد اسم.. عرفت أنهما صديقان لم يلتقيا منذ مدة.. لأن سيسو كان يخبره عني، وعن السبب الذي جعله يريد الزواج بي.. فقط.. فقط.. آه. كان الأمر رهيباً!

ـ لكنك تتذكرين كل شيء.. تابعي.

وتابعت، تسرد له البشاعات التي مرت بها.. وراقبت خطوط العبوس في وجهه تزداد عمقاً.. وفمه يشتد قبل أن يسأل:

ـ ولماذا لم تقولي لي هذا تلك الليلة؟

سحبت يدها من يده.. وضغطت أصابعها على صدغها:

ـ لأنك.. كنت قد حكمت عليّ سلفاً.. وكنت قاسياً عديم المشاعر، بحيث لم أستطع التوسل إليك لتصدقني.

ـ بالدليل الذي جعلتني أقرأه.. هل تعتقدين أنني كنت سأبقى رحوماً!

تنهد وأضاف:

ـ كنت أعرف حقيقة سيسو.. كنت أعرف أنه مهووس بالنساء وأنه خفيف العقل، ولص إلى درجة ما.. لكنه دفعنا للاعتقاد بأنه يحبك بعمق.. وكدت ألعنك.. أجل.. ألعنك لانفصالك عنه. كنت أعتقد.. مع أنك كنت قد بدأت تجذبينني كالسحر كذلك.

احتجت:

ـ لا! كنت تكرهني!

ـ رغماً عني.. كرهتك وأحببتك في الوقت عينه.. وهذا ممكن الحدوث.

ـ أعرف.

نظر إليها:

ـ وأنت كذلك؟

ـ ليس بالضبط.. لقد سيطرت على حياتي وكان تأثيرك فيّ مذهلاً ومخيفاً.. لكنني كرهت نفسي لأنني.. لأنني كنت.. أذوب بين ذراعيك.. وكنت أريدك.

ـ إذن، لماذا لم تقولي لي هذا فيما بعد؟ لماذا لم تتركي المنزل وتعودي إلى انكلترا؟

ـ في البداية، لأنك جعلت من بقائي واجباً من أجل فرانسيسكا. ولم أستطع إيلامها بقول الحقيقة عن سيسو.. ثم فيما بعد، ظننتك مشاركاً في مؤامرته لخداعي وخداع والدي.. فرغبت في الانتقام.. بعد ذلك، حين بدأت أحبك.. أحسست بالغيرة من روزينا.. ولكن رغم ما فعلته أو ظننت أنك فعلته لم أعد أرغب في الانتقام، رغبت فيك فقط!

ـ ولم تتركيني أعرف هذا؟

ـ خلتني قادرة.. ظننت أني فعلت.. أتذكر؟

ـ الليلة التي أخرجتك فيها في نزهة في الخليج؟

ـ أجل.. حسناً..

تلاقت عيونهما وذابتا، ثم أشاحا بصرهما، وتابعت أدوينا الكلام:

ـ لكنك فيما بعد أصغيت إلى أكاذيب روزينا عن لقائي برومانو في شقتها، وعندما لم أستطع أن أنكر هذا، تركتني.. تجاهلتني وهجرتني بكل للكلمة من معنى. وما زال هذا الهجر مستمراً..!

ـ لن يبقى هكذا أبداً يا محبوبتي.. لماذا تظنين أنني أرسلت أطلبك اليوم؟ لأنك تركتني أرى أنك تغارين من روزينا.. وأردت أن أظهر لك مستوى علاقتي بها.. حقاً.

ـ كنت تراها كثيراً.. ورأيتك تعانقها في الكرنفال.

ـ ولم تكن المرة الوحيدة.. أعترف بهذا. فهناك لغة واحدة تفهمها مثيلات روزينا في هذا العالم.. ولقد استخدمتها للوصول إلى ما أريد.. وفي النهاية وصلت.

سألت: «إلى ما تريد؟»

ـ أجل.. سبق أن سمعت أن سمعتها مشينة وأنها تنتظر الطلاق، إنما ليس قبل أن تجد رجلاً أفضل يعيلها، ولقد شككت فيها منذ جاءت إلى القيلا تدعي أنها مجرد صديقة لسيسو.. وتساءلت لماذا لم تنته العلاقة مع موته، ولماذا لم يصطحبها يوماً إلى القيلا، ولماذا لم تعرّف نفسها لنا في الجنازة.. ولماذا لم تزر فرانسيسكا منذ ذلك الوقت؟ حين دعت نفسها، وبدأت ترمي نفسها عليّ.. قررت أن أشجعها في سبيل أن أعرف ماذا كانت لسيسو، وماذا كان لها.. وعلى وجه الخصوص، لأعرف ماذا فعل بأوراق أبيك بعدما رفضتها..

تمتمت بصوت أقل انخفاضاً من الهمس، فسأل:

ـ ماذا؟

ـ هذا ما أردت معرفته.. كنت أريد أن أعرف ماذا ستقول لي

بشأن الأوراق، كنت أنوي سؤالها عن ذلك في الليلة التي خدعتني فيها وجعلتني ألتقي برومانو في شقتها بدل أن ألتقيها هي.. وعندما رأيتها أوضحت لي أننا عدوتان. لذا لم أعد أتمادى معها أكثر مما تماديت مع رومانو الذي شجعته للأسباب عينها.

ابتسم مرة أخرى:

ـ لكنني نجحت أكثر مع روزينا.. وعرفت كم لاحقها سيسو «غاوياً» كما قالت.. وأخبرتني كم تشوقت لي من بعيد. واستفاضت في الحديث عن خططه لصناعة الكريستال الرخيص، ومحاولته بيع الطريقة إلى «التشيك» ولكنه لم ينجح.

ـ عندما تحدث إلى رومانو عبر الهاتف، كان يعتقد أنها ستحقق له ثروة.

ـ هذا ممكن.. مع أنني أشك في أن أحداً من بلدان أوروبا الشرقية، بحاجة لمعرفة شيء عن تخفيض كلفة الإنتاج.. أتعرفين.. كنا أنا وأنت كبغلين عنيدين، شقّ كل واحد منا طريقه في اتجاه، لذا فشلنا في إدراك أننا نسعى وراء أمر واحد!

وكانا ناجحين، كما حصل.

ـ لكنني لم أنجح.. حتى قال لي رومانو في المعرض إن هذا مستحيل، كنت أعتقد أن سيسو سرق الفكرة لطلاء الكريستال يدوياً، وأنك استخدمتها.. خاصة أن الشائعات عن اكتشافكم الجديد دارت حول الفكرة التي تقول إن منشأها إنكليزي.

ـ وهذا غير صحيح.. ولكن آخر قطعة في اللغز انكشفت في انكلترا. إنما ليس في مصنع زجاج، بل في سجلات مصنع قديم كان لرجل وامرأة من القرن السابع عشر يصنعان الزجاج بطريقة بسيطة..

وكانا قد أتقنا العملية لكنهما لم يستمرا بها، ربما بسبب افتقارهما إلى المال.. ولقد نجحت الطريقة عينها معنا بعد سنوات من التجارب والفشل.. وهذه قصة «كريستالو فايور» حتى الآن، فهل ترضى السنيورا أن تكون سبباً لثروتها؟

ـ آه! كاليوس! هل هذا صحيح؟ هل سيحدث هذا حقاً؟ هل انتهينا من كل ما كان يشغل بالنا..؟ ورميناه في مهب الريح..؟

ـ أجل.. هذا صحيح كارا.. مع أن ما شغل بالك كان واضحاً لي منذ زمن بعيد.

ردت بحماسة:

ـ وأنت كذلك، لكن إن كنت تحبني حقاً فلماذا تركتني أستمر في الظن أن زواجك مني مجرد عقوبة؟

ـ لقد أحببتك.. وأردتك.. وعاقبت هجرك لسيسو حتى انتزعت الحقيقة من روزينا.. وهذا ما استغرق وقتاً طويلاً.

ـ حتى الآن؟

ـ ليس تماماً.. ما إن حصلت على كل ما أريد منها، حتى رميتها.. واليوم لحقت بي إلى هنا بعدما جابت المدينة بحثاً عني.. وبدا لي إنها فرصة مناسبة لإجبارها على الاعتراف بكل شيء لك.. ولم يكن الموقف مستساغاً.. أليس كذلك؟

ارتجفت أدوينا:

ـ بل كان فظيعاً! وكنت قاسياً جداً معها.

ـ ليس قاسياً جداً.. فقد استغلت ضعف سيسو أمام النساء والمال، وشوهت أفكاري عنه لمدة طويلة. جعلتك خاطئة.. ودفعتني إلى الشك فيك بالنسبة لرومانو كالينو، في الوقت الذي

بدأت فيه أدرك أنني أحبك حباً يجعلني قادراً على غفران ما فعلته بأخي..

ـ أكان هذا ليلة خروجنا إلى الخليج؟

هز رأسه: وأعدتك إلى البيت، لنمضي ليلة ليس فيها احتقار أو كراهية.. كنت في غاية الجمال تلك الليلة.. امرأة كاملة وكنت لي.. لي وحدي.

ـ هذا صحيح.. لكنك لم تقترب مني مرة أخرى.

ـ لم أستطع.. لأنني كنت أحاول إخراج سمّ تلك الفتاة من نفسي.. ولم أكن أعرف أنك كنت تستغلين رومانو للهدف ذاته.. لكنني الآن..

كان المطر يزداد انهماراً في الظلام. وفي الغرفة المليئة بالظلال لم يكادا يريان بعضهما بعضاً.. ولكن الأحاسيس العميقة ليست بحاجة للضوء أو النور.

تشابكت أصابعهما، عقدة عقدة، في بهجة وحنان.. ولم تكن جذوة الشوق قد تأججت بعد.. كان كل واحد يتوسل إلى الآخر طلباً للحب! ولكنهما لم يكونا يجرؤان على تجاوز كل الحواجز التي أبقتهما متباعدين طويلاً.. كانا رقيقين وخجولين من المغامرة الموعودة الماثلة أمامهما..

لكن كل شيء كان متوفراً لهما.. المستقبل الذي سيصنعانه معاً.. وعرفا أخيراً معاً أحاسيسهما ولم يعودا فاقدين الثقة بها.. الليلة.. وهذه الليلة بالذات لن يكون هناك داعٍ للسؤال.. وعندما عاد الهدوء إلى نبضات قلب أدوينا عادت فشعرت به يتسارع من جديد، فقد تذكرت تلك الليلة التي كانا فيها معاً لآخر مرة.. تلك

الليلة حين..

قطع صوت كاليوس الصمت بشيء بعيد عن أفكارها:

ـ ستسعد مادرينغا.

استوعبت ما يقول بصعوبة.

ـ عنا.. تعني؟ لكن أليست سعيدة بنا؟ فنحن لم نتركها تحزر شيئاً من مشاكلنا.. أليس كذلك؟

ـ لا.. ويجب ألا تعرف شيئاً.. سيبقى سيسو بالنسبة لها الحبيب الذي كان دائماً.. ولكن.. لا.. لم أكن أفكر في أن طارئاً ما سيطرأ على مشاعرها تجاهنا.. كنت أتصور سرورها عندما ستعلم بالشيء الذي طالما أرادته. أتعرفين ما أعني؟ أم يجب أن أذكرك بالأمسية التي أغمي عليك فيها وأنكرت أن لديك ما تقولينه لي ساعة سألتك؟

هل هي رمية من غير رامٍ؟ أم أنه مصيب؟ إذا كان يقصد بهذه الملاحظة أنه عرف سرّها!

قالت: أذكر هذا.. ولكنني لم أكن أكذب حين قلت لا.. لأنني لم أكن أعرف أنني..

ـ أنك حامل؟ هذا ما أتكلم عنه حبيبتي!

هزت رأسها بسعادة: «أجل.. لكن كيف عرفت؟»

ـ كانت رمية في الظلام.. لكن قبل هذا بدوت قلقة كثيراً.. وحين أغمي عليك خطر ببالي أن هذا هو الرد، وكان هكذا.. أليس كذلك؟

ـ صحيح.. ولكنني تأكدت فقط هذا الصباح حين استيقظت.

ـ هذا الصباح؟ ولم تتصلي بالدكتور باريولي؟

ضحكت: لا.. لكن لا تقلق.. لقد استيقظت وأنا أعرف.. فكن سعيداً لأجلي بل لأجلنا نحن الثلاثة.

رد عليها بأن رفع ذقنها وقبّلها بخفة الريش:

ـ هذه قبلة لفتاة ذكية يجب التعامل معها بعناية فائقة من الآن وصاعداً.

حركت أنفها له بخيبة مصطنعة:

ـ يا إلهي! وأنا التي كنت أتطلع شوقاً إلى شيء أريده.

فهم ما تعنيه:

ـ أولم تحصلي بعد على ما تريدين؟

غضت طرفها بحياء:

ـ أجل.. في الواقع.. لقد كان السنيور.. مهتماً جداً.. لكن..

ـ أيتها الماكرة العديمة الحياء.. هل تحاولين إغوائي؟ إذا كان هذا صحيحاً.. فبحق السماء سوف..

وتحرك مهدداً.. فتراجعت.

ضحك بخشونة لصوت صفارة أتت من الخليج.

ـ لقد عاد ليو من أجلنا.. ولكنه اختار التوقيت غير المناسب.. وهذه نهاية التحرش الدرامي سنيورا!

شدها لتقف وضمّها إليه هامساً:

ـ أقول بجد إنه يجب أن يتوقف كل شيء بيننا حالياً. لكن قريباً يكون لنا ما نريد..

أحضر لها المعطف، وألبسها إياه ووضع لها القبعة وكأنه يعتني بجوهرة نفيسة.. تأبط يدها وسار معها إلى المرسى للقاء وعد لهما،

www.elromancia.com

ومدينة توقفت الريح عنها، ومياه بدأت تهدأ، وقمر يرتفع.

قال كاليوس لليو:

ـ سأتولى القيادة.. وستجلس زوجتي إلى جانبي.

زوجتي! كانت هذه الكلمة العادية بالنسبة لأذني أدوينا، أجمل صوت سمعته.. تحت قيادة اليدين اللتين أحبتهما، انطلق اللانش بخفة على الشاطىء في نصف دائرة كبيرة.. تاركاً وراءه موجة من المياه الفضية.

* * *

www.elromancia.com
مـــرمـــوريـــة